الفصل الثالث

الحضارة الآرامية

الآراميون هم أحد الشعوب السامية موطنهم وسط وشمالي سوريا والجزء الشمالي الغربي من (بلاد ما بين النهرين)، وأصلهم من الجزيرة العربية، فهم كانوا من البدو. استعمل الآراميون لغتهم الخاصة وهي اللغة الآرمية بلهجاتها المتعددة. وقد استطاعت هذه المجموعات الآرامية ما بين القرنين الثاني عشر والثامن قبل الميلاد أن تكون دويلات عديدة سيطرت على بلاد واسعة في الجزيرة الفراتية في سوريا بين دجلة والفرات، وأن تؤسس مجموعات زراعية مستقرة. وقد أُطلق اسم الآراميين على البلاد التي سكنوها، فدُعيت باسم بلاد آرام قروناً عدة قبل أن تعرف منذ العصر الهلنستي السلوقي باسم سوريا وكان ذلك في (القرن الرابع قبل الميلاد).

الهلال الخصيب، بلاد الآراميين

* النشأة والأصل :

هم شعب ينتمي إلى الشعوب السامية، تربطهم علاقة قرابة مع الشعب العربي والعبراني، ويعود نسبهم حسب ما ورد في العهد القديم الى آرام بن سام بن نوح (سفر التكوين، ١٠:٢٣).

إن كلمة «آرام» التي اشتق الآراميون منها اسمهم، وهي تسمية جغرافية أطلقت على سوريا الحالية وموجودة في الكتابات الآرامية القديمة. وأطلق العهد القديم تسمية «آرام نهرين» على منطقة الجزيرة السورية كلها، كما انتشرت تسمية «بيت آرامي» أي بلاد الآراميين على جنوب ووسط العراق، وانتهت الدولة الآرامية التي لم تكن موحدة سياسياً في عام ٧٢٠ ق.م.، على يد سرجون «شيروكين» ملك نينوى. لم يكن الآراميون سوى قبائل بدوية، تنتقل من مكان إلى آخر على أراضي جيرانهم الخصبة، وقد ساعد الاضطراب السياسي وفقدان الأمن هؤلاء البدو الرحل على الوصول إلى بادية الشام، وقبل أن ينتصف الألف الثاني قبل الميلاد؛ كانت هذه القبائل قد سكنت على ضفاف وادي الفرات الأوسط، وكان جبل لبنان عائقاً في طريق هذا التوسّع نحو الغرب. ولقد بلغت الغزوات الآرامية أشدها في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، إذ تمكن الآراميون من مهاجمة الشعوب المتواجدة هناك وطردها، وتمّ لهم إنشاء كيانات سياسية وسيادة دولة مستقلة، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يكوّنوا دولة آرامية موحدة.

نشأت أولى الدول الآرامية في منطقة الفرات الأوسط، وسميت «آرام نهرين» الفرات ورافده الخابور، وهناك «فدان آرام» وكان مركزها مدينة «حران»، وفي الجنوب تأسست «آرام دمشق» وتطورت فأصبحت مملكة كبرى تمتد على الفرات من جهة واليرموك من جهة أخرى، وكانت هناك «مملكة صوبا» قرب بلدة

عنجر جنوب زحلة في البقاع. وفي الشمال نجح الآراميون في التسلل إلى وادي «كارازو» وأسسوا في سفوح جبال الأمانوس مملكة شمأل، وجعلوا مدينة «زنجرلي» عاصمة لها. وفي الجنوب خضعت حماه مع وادي نهر العاصي الأوسط لسلطة الآراميين، ثم قاموا بتشكيل مقاطعات إدارية عديدة. وشكلوا «إمارة صوبا» التي تقع في سهل البقاع، وتقع «إمارة بيت رحوب» إلى الجنوب منها، و«إمارة ماكاح» وتشمل منطقة تل القاضي والجولان، وإمارة جيشور التي تقع إلى الشرق منها، بين دمشق ونهر اليرموك. ومملكة «بيت آغوشي» وعاصمتها «أرفاد» القابعة أطلالها في تل رفعت، و«كركميش» جرابلس، و«شمأل» زنجر لي في تركيا.

لقد انطلق الآراميون من الصحراء السورية حوالي ٢٣٠٠ ق.م إلى أعالي مابين النهرين. أستقروا في البداية في حران وأسسوا عدة ممالك مستقلة، غير موحدة بين القرنيين (١١ : ١٠) ق.م وقد دخلت تلك الممالك في صراع مرير مع الآشوريين وغيرهم من الشعوب المجاورة كالحيثيين في شمال وداخل سوريا والكنعانيين على الساحل السوري وأيضاً في وقت متأخر مع العبرانيين. إلا أن الأشوريون هم من تمكن في النهاية من القضاء على معظم النفوذ السياسي للآراميين سنة ٧١٠ ق.م بسقوط مملكة شمأل في شمال سوريا. وبالرغم من الانتصار العسكري للآشوريين على الآراميين إلا أن النفوذ الثقافي والحضاري للآراميين ظل قوي هناك وخصوصاً في الممالك التي بقيت حية بيد الآراميين ولعبت دوراً كبيراً قبيل سقوطها في القرن الثاني والثالث بعد الميلاد مثل مملكة الرها (تركيا حالياً)، مملكة تدمر (سوريا)، مملكة الحضر (العراق)، ومملكة الأنباط (الأردن).

لقد أطلق المؤرخون اليونانيون تسمية السريان على الآراميين قبيل ميلاد

السيد المسيح بعدة قرون، وفي الحقيقة هنالك خلاف بين المؤرخين حول التسمية حيث أن بعضهم ينسبها إلى أشوريا والبعض الآخر إلى سوريا وأصبحت تسمية السريان شائعة عندما تحول معظم الآراميون من الوثنية إلى المسيحية في القرن الأول والثاني للميلاد فإن كلمتي سرياني و آرامي لهما معنى واحد.

* قبائل الأخلامو (الأحلامو) :

ويرتبط اسم الآراميين في هذا العصر المبكر بجماعات من البدو الرحل كان يُطلق عليهم اسم (الأخلامو). ويمكن تتبع تحركات المجموعات الآرامية منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد من المصادر الحيثية (حوليات حاتوشيلي الثالث) والمصادر الآشورية (حوليات الملك أددنيراري الأول ١٣٠٧ : ١٢٧٥ ق.م.)، ومن الوثائق المعروفة برسائل تل العمارنة (أخيت – أتون) حيث ورد ذكر الأخلامو الآراميين في بعضها من عهد إخناتون (نحو ١٣٧٥ق.م) عندما كانوا يتجولون على ضفاف الفرات. وبعد أن تمكن هؤلاء من الاستيطان والاستقرار على ضفاف نهر الخابور وعند مجرى الفرات الأوسط في سوريا وهي المنطقة التي عرفت باسم آرام النهرين (منطقة الجزيرة السورية اليوم)، ومن هناك بدأوا يؤسسون ممالك وإمارات ودول هي الممالك الآرامية.

ذُكِر تعبير الآراميون في وثائق الملك الآشوري تجلات بلاسّر الأول (١١١٦ : ١٠٧٦) ق.م للدلالة على الحضارة الآرامية، بدون أن يقرن ذلك اسمهم بالأخلامو. ويتباهى هذا الملك بأنه شنَّ عليهم وعلى الأخلامو أيضاً ثمانية وعشرين حملة على جبهة امتدت من جبل باسار (جبل البشري) وتدمر إلى عانة ورابيقو على ضفاف الفرات. وفي نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد أسس الآراميون مملكة بيت عديني على ضفتي الفرات في المنطقة الواقعة جنوبي

كركميش (جرابلس اليوم) وأسسوا في وادي الخابور إمارات لاقي وبيت بخياني وتل حلف، وبيت خالوب واستقرت قبيلة تمناي في نصيبينا (نصيبين اليوم)، وحزيرانا وحيدادا جنوب غربي ماردين في الجزيرة السورية العليا.

أما أهم دولة آرامية فهي الدولة البابلية الثانية الكلدانية، والحد الأقصى للتوسع الآرامي في الشمال فهو صورو (أي الجبل)، والمقصود هنا هضاب طور عبدين. أمّا في غربي الفرات، فقد تبسط الآراميون بالتدريج غرباً حتى جبال الأمانوس على الساحل السوري واستوطنوا في شمأل (زنجرلي في تركيا). وكثر عددهم حول أرفاد قرب أعزاز شمالي حلب حيث تأسست مملكة بيت أجوشي التي امتدت على منطقة حلب كلّها. كما انتشروا في حوض العاصي في سوريا، وصارت حماة في أيدي حكام آراميين.

وفي سهل البقاع وعلى سفوح الجبال غرب دمشق قامت مملكة صوبة التي ضمّت أراضي البقاع الجنوبي وجزءاً من وادي بردى في دمشق وعين جر (عنجر اليوم)، ويمكن أن تكون قد أقامت اتحاداً مع مملكة بيت رحوب على نهر الليطاني، وبيت معكة على سفوح حرمون السورية، وجشور شرق بحيرة طبريا ومملكة دمشق في حوضي بردى والأعوج وسفوح قاسيون وغوطة دمشق.

ورد ذكر ملك دمشق الآرامي في الوثائق الآشورية باسم "أدد . إدري" (هدد عزر)، نجح "شولمانو . اشارند الثالث" الذي ضم مملكة بيت عديني الآرامية على الفرات ٨٥٦ ق.م. إلى مملكته، وتقدم بعدئذ غرباً إلى حوض نهر العاصي ليواجه عند قرقر شمال حماة تحالفاً كبيراً بزعامة برهدد ملك آرام دمشق ضمّ اثني عشر ملكاً وأميراً في سوريا الساحلية والداخلية وذلك سنة ٨٥٣ ق.م فيما عرف بمعركة قرقر.

* التاريخ :

بعد موجات الأكاديين والعموريين والكنعانيين، وصلت موجة الآراميين من شبه الجزيرة العربية، في أواخر النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد. وكانت القبائل شبه البدوية تدعى «أحلامو» قد تحدّثت عنها نصوص مدينة ماري، في نحو القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وأقدم ذكر للآراميين هو من قبل الآشوريين حيث ذكروهم على هيئة قبائل تسمى "الأخلامو"، في النصوص الآشورية في القرن الرابع عشر قبل الميلاد المعارك والتي خاضها الآشوريون ضد هذه الجماعات، التي عرفت في القرن الثاني عشر قبل الميلاد باسم «أحلامي آراميا» وكانت أشهر تلك المعارك بين الآشوريين والآراميين: جرت في مناطق جبل البشرّي وتدمر . واستقرّ الآراميون في حوض البليخ؛ فعرفت منطقتهم باسم «آرام نهاريم» حول مدينة «حرّان» بين نهري الفرات والخابور. وبعد ازدياد قوة الآراميين استقروا في المناطق الواقعة بين تدمر وجبل البشري وسط سوريا وتل حلف في الجزيرة الفراتية حيث استقروا وكونوا ممالك آرامية ثم اتسعت مناطق استقرارهم في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد في أنحاء الهلال الخصيب شرقي الفرات وغربه، وذلك بعد انهيار التوازن في بلاد المشرق القديم بتزايد حدة غارات شعوب البحر وتحركاتهم، وانهيار الإمبراطورية الحيثية في الأناضول وسوريا الشمالية، وانحسار نفوذ مصر القديمة عن بلاد كنعان وضعف بابل الكاشية.

لقد تأثر تاريخ المنطقة؛ كما تأثرت حضارات كثيرة بسقوط دولة المنطقة، كما تأثرت حضارات كثيرة بسقوط دولة الميتانيين، واكتشاف الحديد وحسن استخدامه في ميادين الصناعة والحرب، واجتياح «شعوب البحر» الساحل الشرقي للبحر المتوسط حتى حدود مصر، وتمزّق الإمبراطوريتين البيزنطية والحيثية إلى

دويلات وإمارات، واستقرار الفلسطينيين في بلاد كنعان، فتشكلت ممالك الآراميين في سوريا ، واستفادت من طرق القوافل، ونجحت في إيصال أحد قادتها «أدد . آفال . إدين» إلى عرش بابل .وظهرت ممالك الآراميين كقوة عسكرية لها أهميتها في المنطقة، وكمراكز اقتصادية وثقافية؛ تركت طابعها الحضاري عبر العصور. وكان أشهر هذه الممالك الآرامية :

– في الشمال :

• مملكة بيت عديني : عاصمتها «تل برسيب / تل أحمر حالياً»، امتدّت شرقاً حتى نهاية البليخ.

• مملكة بيت بحياني : عاصمتها «غوزانا / تل حلف حالياً» قرب رأس العين على نهر الخابور.

– وفي شرق الخابور الأعلى :

أسست القبيلة الآرامية «تيمانيا» عند رأس العين ثلاث إمارات هي :

• نصيبين • حوريزانا • جيدارا.

وفي شرقها استقرت قبائل سوهو الآرامية في حوض الفرات من «عانة» حتى «ربيقو» ..

– وفي جهة الغرب منها :

تمكن الآراميون من تأسيس:

• إمارة بيت أجوشي : التي كانت تضم حلب و«أرفاد / تل رفعت حالياً»، وكانت مجاورة لمملكة بيت عديني.

• مملكة شمأل / زنجرلي : حالياً عند جبال الأمانوس.

– وفي وسط البلاد :

• مملكة حماة التي عثر فيها على آثار آرامية.

– وفي جنوبي العاصي والليطاني :

• مملكة آرام صوبا : في البقاع.

• مملكة آرام بيت رحوب : تقع جنوبي مملكة آرام صوبا، عند منعطف نهر الليطاني.

• مملكة أرام معكة : كانت تشمل مقاطعة «دان / تل القاضي حالياً» في الجولان.

• مملكة آرام دمشق : أصبحت زعيمة الممالك الآرامية منذ أسسها القائد الآرامي «رزون بن اليدع» حتى سقوطها آخر عهد آخر ملوكها «رصين» بيد تغلات فلاسر، ملك الآشوريين . وإن زعامة مملكة دمشق تفسِّر تسمية ملكها باسم «ملك آرام»، وتوضِّح أسباب اكتشاف نصب ملقارت، الذي نقشت عليه كتابة آرامية، تتضمَّن اسم ملك دمشق «بر حدد» في المنطقة الشمالية.

• مملكة جشور : بين نهر اليرموك ودمشق.

* مملكة آرام دمشق :

ازدهرت مملكة آرام دمشق وازدادت قوةً ونفوذاً بعد إبعاد الخطر الآشوري عن العالم الآرامي في غرب الفرات وأحرزت مملكة آرام دمشق مكانة مهمة في النصف الثاني من القرن التاسع ق.م. عندما تولى الحكم فيها حزائيل ويعني اسمه (إيل يرى) (٨٤١–٨٠٥) ق.م. الذي أنهى حكم أسرة برهدد، وبقي ملك آرام دمشق سيد الموقف في معظم أصقاع العالم الآرامي فبسط سلطانه على جنوب سوريا، ومدّ نفوذه من وادي نهر اليرموك إلى أرنون وربما وادي الموجب، وفلسطين

ووصل إلى بلدة جات شرق عسقلان. وامتدت مملكة آرام دمشق لتضم مناطق كثيرة من بلاد آرام في سوريا والمنطقة المجاورة.

* امتداد النفوذ الآرامي :

سيطر الآراميون من شرق سوريا إلى منطقة حوض دجلة الأدنى وإزداد النفوذ الآرامي في اتجاهات عديدة، إذ استولى أمراء آراميون على عرش بابل ومنهم نابو مكين زيري (٧٣١ : ٧٢٩ق.م) ومردك أبلا إدينا (٧٢١ : ٧٠٣/٧٠٥)ق.م. وفي خضم هذا النزاعات، نقل الآشوريون عشرات الألوف من السكان الآراميين في مختلف أرجاء الهلال الخصيب، والذين نقلوا معهم لغتهم وعقائدهم كما تعرضت بابل للتدمير والتخريب وقضت الحرائق على أهم معالمها القديمة وقصورها ولاسيما على يدي سنحريب ملك آشور، ثم إبان النزاع بين الأخوين آشور بانيبال (٦٦٨ : ٦٢٧) ق.م، وشمش شوم أوكين (٦٦٨ : ٦٤٨) ق.م. ومع ذلك فإن الآراميين لم يقروا بالهزيمة، فأعيد بناء بابل التي سرعان ما استأنفت تصدّيها لمطامع ملوك آشور، واستطاع الأمير البابلي نبوبولاصر أو نابو أبلا أصّر (٦٢٥ : ٦٠٥) ق.م أن يعلن نفسه ملكاً على بابل وأن يشن على آشور حرباً لا هوادة فيها متحالفاً مع أعدائها المحيطين بها من الشرق والشمال (الميديون والسكيثيون). وانتهت هذه الحرب بالقضاء على مملكة آشور ٦٠٩ ق.م. وقامت على أنقاضها «الامبراطورية البابلية الثانية» (٦٠٥ : ٥٣٩) ق.م والتي كان من العسير التفريق فيها بين البابليين والآراميين، فقد اختلط الجميع وتمازجوا بقوة وعمق في إطار ثقافة مزدوجة (بابلية – آرامية) كانت اللغة الآرامية أهم عناصرها، وظل الأمر على هذا النحو إلى أن انتقلت السيادة السياسية إلى ملوك الأسرة الفارسية الأخمينية (٥٣٩ : ٣٣٢) ق.م.

*أشهر الممالك الأرامية التي سقطت في القرنين (٨ – ٧) ق.م:

١– مملكة بدان آرام :

تقع في حوض البليخ ومركزها مدنية حران وورد اسمها في النصوص المصرية والتي تعود للقرن السادس عشر قبل الميلاد.

٢– مملكة آرام نهرين :

تقع بين نهري الخابور والفرات، ظهرت في القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وأستمرت إلى القرن الثامن قبل الميلاد. هاجمها سرجون الثاني سنة ٧١٧ق.م (وهي اليوم مدينة جرابلس السورية) .

٣– مملكة بيت عديني :

تقع بين نهر البليخ شرقاً وضفتي نهر الفرات الأوسط غرباً، سقطت بأيدي الأشوريين سنة ٨٥٦ ق. م في عهد شلمنصر الثالث . .

٤– مملكة بيت باخياني :

عاصمتها غوزانا الميتانية القديمة (تل خلف) قرب رأس العين السورية .

٥– مملكة بيت زماني :

تقع بين الفرات وينابيع الخابور وكانت عاصمتها مدينة آمد (ديار بكر في سوريا) في القرن العاشر قبل الميلاد قضى عليها آشور ناصر بعل ٨٠٠ ق.م.

٦– مملكة شم أيل أي أسم أيل :

تأسست على الأرجح في القرن العاشر قبل الميلاد. و هي أكبر الممالك

الآرامية الشمالية، امتدت بين حلب وحوض نهر الأسود وعاصمتها زنجرلي وقد دفعت الجزية للآشوريين.

٧- دويلات رجوب ومعكا وجشور :

في المنطقة الجنوبية الغربية للهلال الخصيب، وتقع رحوب في أقصى شمال فلسطين، ومعكا قرب جبل الشيخ، وجشور بين دمشق واليرموك (ورد ذكرها في العهد القديم أيام الملك داوود) .

٨- مملكة لركم :

نشأت في القرن الحادي عشر قبل الميلاد في المنطقة بين شمأل شمال وعديني جنوباً. وكانت مدينة مر كاسي (مرعش) عاصمة لها سقطت على يد سرجون الأشوري.

٩- مملكة سوحي :

نشأت بين نهر اخابور ومصب نهر الليخ أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد. قضى عليها آشور ناصر بعل سنة ٨٧٩ ق .م.

١٠- مملكة بيت أغوشي :

قامت بعد سقوط الدولة الحيثية بيد شعوب البحر، وأمتدت بين طرابلس وحلب عاصمتها عرباد (تل رفعت) قاومت كثيراً إلى أن سقطت على يد تجلات بلاسر الثالث ٧٤٠ ق .م و بعد حصار دام ثلاث سنوات.

١١- مملكة حماة :

أنتزعها الآراميون من الحيثيين في أواخر القرن الحادي عشر قبل الميلاد

وجعلوها دولة قوية لعبت دوراً في التحالفات ضد الأشوريين وشملت تسع عشرة مقاطعة، سقطت بيد سرجون الثاني ٧٢٠ ق.م.

١٢- مملكة آرام صوبا :

من أقدم الممالك الآرامية، عاصمتها عنجر (في لبنان) حاربت الملك داوود.

١٣- مملكة أرآم دمشق (دار مسيق) :

استقلت عن أرام صوبا في القرن الحادي عشر حيث أتخذ القائد رزون لقب ملك آرام. وقد كانت أقوى الممالك الأرامية، ضمت آرام تجمعا لمقاومة الآشوريين، لكنها سقطت سنة ٧٣٢ ق. م

*الممالك الأرامية التي حافظت على استقلالها بعد القرن السابع قبل الميلاد :

١- ملكة الأنباط :

ظهر نفوذها القوي على مسرح التاريخ بدءاً من القرن الرابع قبل الميلاد، وكانت لغتها احدى اللهجات الأرامية وعاصمتها البتراء. وقد أمتدت حدودها من البحر الميت إلى البحر الأحمر، وقد سقطت بيد الإمبراطور الروماني تراجان، وبعد ذلك انتقل الدور الريدي في التجارة إلى تدمر.

٢- مملكة تدمر (تقع وسط سوريا) :

عرفت عند اليونان باسم بالميرا بمعنى النخيل (دوامة داتمرة) ولكن معنى اسمها بالسريانية (تدمرتو) الأعجوبة، تعود معظم آثار تدمر إلى القرن الثاني الميلادي. وقد كانت محطة هامة بين الشرق والغرب للقوافل التجارية، حافظت تدمر على استقلالها أثناء النزاع بين البارثيين والسلوقين، ولكنها سقطت عسكرياً بيد الإمبراطور أورليانوس .

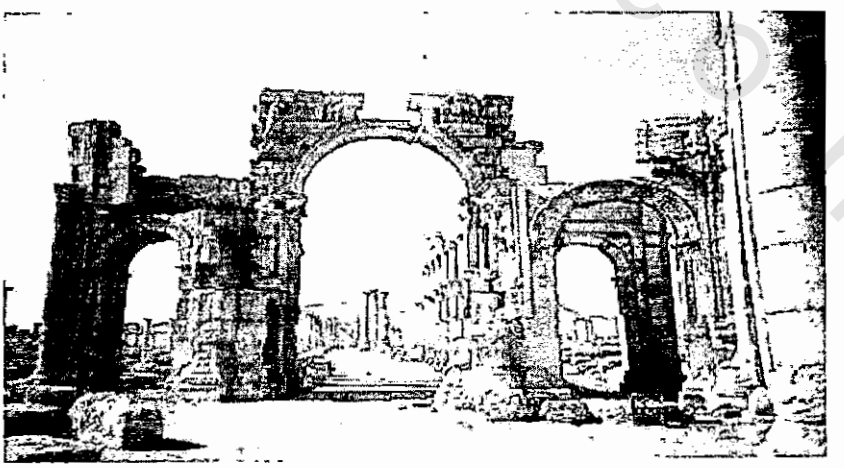

الملكة زنوبيا
ملكة تدمر

٣- مملكة الحضر :

هي من أقدم مملكة عربية في العراق، تقع إلى الجنوب الغربي من الموصل كانت اللغة الحضرية لهجة أرامية شرقية، والكتابة الحضرية لا تشبه الكتابة العربية الحالية في الشكل، ولكنها تحتوي على نفس المضمون ونفس الألفاظ .

٤- مملكة الرها :

تقع شمال سوريا (وهي اليوم مدينة أورفا في تركيا)، وقد أزدهرت هذه المدينة بعد دخول ملكها ابجر المسيحية، من ثم أصبحت مركز هام للكنيسة السريانية وتطورت بها العلوم والأداب منذ القرن الثالث الميلادي، لقد خضعت للنفوذ الروماني سنة ٢٢٤ م على يد الأمبراطور كركلا.

* اللغة الآرامية :

* لغات سامية :

تنتمي اللغة الآرامية وهي إحدى لغات سوريا القديمة إلى أسرة لغوية كبيرة عرفت في أوساط الباحثين باسم اللغات السامية وأقرب اللغات القديمة إليها هي اللغات الكنعانية، وكباقي اللغات بينها وبين اللغات السامية عناصر مشتركة كثيرة في النطق والمفردات والتصريف.

لقد عرف المشرق القديم في أيامهم وحدة ثقافية لغوية واقتصادية قامت على أكتاف الآراميين لم يشهد لها المشرق مثيل من قبل بهذا الاتساع وبهذه القوة، وحتى بعد دخول الإسكندر المقدوني وقيام الممالك الهلنستية (السلوقيين والبطالمة) انتشرت الثقافة الهلينية في بلاد المشرق، رغم ذلك بقيت اللغة الآرامية بالرغم من التأثيرات الجديدة وظلت منتشرة، وكان ذلك من أهم عوامل وحدة المشرق القديم، واستمرت اللغة الآرامية بقوتها حتى فتح المسلمين لبلاد الشام. وقد انطلقت اللغة مع قيام الحضارة الآرامية في وسط سوريا وكانت لغة رسمية في بعض الدول العالم القديم، ولغة الحياة في الهلال الخصيب، كما تعد لغة مقدسة. وقد فرضت اللغة الآرامية نفسها على المنطقة، يساعدها على ذلك النشاط

التجاري للمتحدثين بها. وتعود بدايات كتابتها للقرن العاشر قبل الميلاد، إلا أنها أصبحت اللغة المسيطرة في الهلال الخصيب بدءاً من القرن الخامس قبل الميلاد بعد هزيمة المملكة الآشورية، ومنذ القرن السادس قبل الميلاد غدت اللغة الآرامية اللغة السائدة بين مقاطعات الإمبراطورية الفارسية الواسعة الأرجاء، ولقد حصل الأرمن والفرس والهنود على أبجديتهم من مصادر آرامية، وحروف الفهلوية والسنسكريتية هي من أصل آرامي، وحمل الكهنة البوذيون الأبجدية السنسكريتية إلى قلب الصين وكوريا واليابان، وكان عدد المتكلمين بالآرامية في بلاد آشور أكثر من المتكلمين باللغة الآشورية.

نصب مالكي مزود بكتابة آرامية وجد في النيرب (تل آفيس) قرب حلب من القرن ٧ ق.م

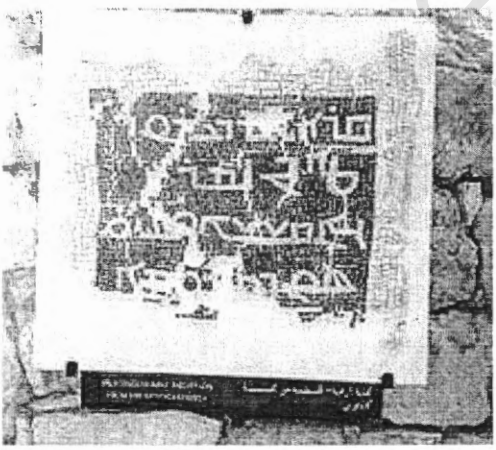

نقش آرامي في مادبا الأردن

كانت لغة حيّة تطورت من لغة مجتمع بدوي إلى لغة مجتمعات حضارية مستقرة، وبقيت لغة الثقافة والتجارة والإدارة والفكر والأدب فترة طويلة تقرب من ألفي عام. وقد كُتب بها سفري دانيال وعزرا، ومخطوطات البحر الميت، وهي اللغة الرئيسية في التلمود. ومن المؤكد أن الآرامية هي لغة يسوع المسيح، وبها تأثرت اللغة الفارسية والعبرية واليونانية واللاتينية. أخذت اللغة الآرامية تتوارى، كلغة أدب وتخاطب، وحلّت محلها اللغة العربية، وأصبحت اللغة المحكية، وأضحت اللغة السريانية لغة دين وكنيسة. واعتنق كثير من السريان الآراميون الإسلام، وانصهروا في البوتقة العربية، فهجروا لغتهم، وتكلموا العربية، ففقدوا بذلك طابعهم الآرامي. وما زالت اللغة تستخدم كلغة للتداول اليومي في الشرق الأوسط خاصة بين معتنقي الديانة المسيحية من أتباع كنائس مسيحية سريانية في بلاد سوريا والهلال الخصيب وتركيا وإيران، وفي ولاية ميشيجان في الولايات المتحدة الأمريكية بسبب الهجرة الكثيفة للناطقين باللغة الآرامية من السوريين والعراقيين إلى مدينة ديترويت، وفي السويد وألمانيا وهولندا بين المهاجرين من الشرق.

تطورت الكتابة الأرامية عبر العصور ليتوصّل الآراميون لكتابة خاصة بهم في القرن السابع قبل الميلاد بالترتيب الأبجدي. ثم تطورت كثيراً في القرن السادس قبل الميلاد بحيث صارت "لغة الدبلوماسية" كما هو الحال مع الإنجليزية حالياً إلى أن انبثق منها خطان: حضارة سوريا الداخلية الآرامية التدمرية والسورية القديمة والآرامية السريانية.

* اللهجات الآرامية :

الآرامية لفظة تشمل مجموعة لغوية غنية ومعقدة تتفرع إلى لهجات سامية نطقت بها المجموعات الآرامية المنتشرة في مختلف أنحاء الهلال الخصيب. وقد

تعلم الآراميون من الكنعانيين فن الكتابة الأبجدية وحاولوا استعمال اللغة الكنعانية في كتاباتهم، غير أنهم كشفوا عن ذواتهم باستعمالهم تعابير آرامية مثل مقطع "بو" و"بيت". وسرعان ماتخلوا عن الكنعانية وأخذوا في استعمال لغتهم الخاصة. إن أقدم النصوص التي وصلتنا باللغة الآرامية ترقى إلى القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد، وفيها يبدو التطور واضحاً من اللغة الكنعانية إلى اللغة الآرامية. ويمكن تقسيم اللغة الآرامية إلى أربع فئات :

١- الآرامية القديمة :

هي لغة الكتابات التي عثر عليها في شمال سوريا الحالية والتي ترقى إلى الفترة التي ما بين القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد. إن أقدم المكتشفات تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد واللقى المكتشفة كانت تكتب باللغة الآرامية. ثم أخذت هذه اللهجة في التطور والاكتمال. ومن الصعب القول أن هذه اللهجة كانت سائدة لدى جماعات أخرى من الآراميين، لعدم توفر نصوص تعود إلى تلك الحقبة مثل تلك التي أُكتشفت في شمالي سوريا والمنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات (بلاد ما بين النهرين)؛ موطن الحضارة الآرامية.

٢- الآرامية الرسمية :

ظهرت لهجة جديدة في الكتابات التي وردتنا من شمالي سوريا بعد هذه الحقبة، وفي الكتابات الواردة في شريعة "بر ركوب" التي دونت أقدم أجزائها بالآرامية القديمة لغة سوريا القديمة. وهذه اللهجة الجديدة هي التي تداولتها الوثائق الرسمية في مختلف المناطق الآشورية، ثم تبنتها الإمبراطورية الفارسية بدورها كلغة رسمية في الدوائر الحكومية. ففي العهد الآشوري (١١٠٠ : ٦١٢)ق.م تبنت الدولة اللغة الآرامية وأصبح المشرفون على الشئون الإدارية

يتقنونها أكثر من الاكادية، لا سيما في المناطق النائية حيث استعملوا للمراسلات نموذجاً من الآرامية المبسطة. كما أن عادة إرفاق جداول آرامية بالألواح المسمارية أخذت تزداد منذ ذلك التاريخ حتى في قلب الإمبراطورية. وكانت هذه الجداول ترجمة آرامية موجزة لما تحتويه الألواح المسمارية؛ لاستعمال التجار بنوع أخصّ. حيث أن الآرامية التجارية صارت أساساً للآرامية الرسمية، إذ تبناها الشعب في مختلف أرجاء الإمبراطورية، مفضلاً أياها في الأغراض الأدبية على لغته الخاصة. كما نلاحظ في الألواح الأكّادية أن بعض الكتبة يسمون بـ "كتبة الآرامية". ونشاهد على تمثال "بر ركوب" في زنجرلي كاتباً أمامه وبيده ريشة وحبر ولوح مهيّأ للكتابة بهذه الآرامية الرسمية. ومن الجدير بالذكر أن بر ركوب هذا كان عميلاً مخلصاً للملك الآشوري. كما نرى هذه الآرامية منحوتة في كثير من الأختام والأواني – (التي عثر على العديد منها في سوريا) أو منقوشة على الخزفيات.

وقد انتشرت الآرامية الرسمية انتشاراً واسعاً في العهد الآشوري، وانتشرت من سوريا جنوباً وليس في الإمبراطورية الآشورية فحسب، بل في الأقطار الأخرى أيضاً. فقد عثر على إناء من البرونز بالقرب من أوليمبيا اليونانية تحمل اسماً محفوراً بالحروف الآرامية. ومن المحتمل أن تكون الأبجدية التي أخذها اليونان عن السامیین في سوريا وآسيا الصغرى من النموذج الآرامي أكثر مما هي من النموذج الفينيقي.

أما في مصر فإننا نجد كتابات بالآرامية منذ عهد أسرحدون (٦٨٠ : ٦٦٩) ق.م وقد اشتهرت المخطوطات التي عثر عليها في أسوان أو بالأحرى في الفنتين المصرية (جزيرة فيلة) هي عشر مخطوطات بيعت في أسوان سنة ١٩٤٠م. واكتشفت في طرطوس قيليقية كتابات أقدم. كما شقت هذه اللغة طريقها إلى قلب

الجزيرة العربية نفسها. واستمرت الآرامية تشغل مكانتها المرموقة في العهد البابلي الحديث (٦٢٦ : ٥٣٨) ق.م، وفي العهد الفارسي (٥٣٨ : ٣٣٠) ق.م.

وقد مرت هذه اللغة بفترة عصيبة في العهد اليوناني (٣١٢ : ٦٤) ق.م حيث أخذت اللغة اليونانية تفرض نفوذها على المناطق الهلنستية في كامل سوريا، غير أنها قاومت هذا النفوذ، وظلّت سائدة في "الحضر" مثلاً رغم مظاهر الحضارة اليونانية الرومانية البادية في أطلالها. وعوّضت الآرامية عما فقدته في العهد اليوناني، إذ بسطت نفوذها في البلاد العربية حيث تداولها الأنباط والتدمريون ومملكة تدمر حتى العهد المسيحي، وفي فلسطين حيث تمسكت بها الجماعات التي ناهضت الثقافة اليونانية.

٣- الآرامية الغربية :

انتشرت الآرامية الغربية في مناطق متفرقة من سوريا، وجنوبها وفي الممالك الآرامية السورية، وقد بقيت اللغة الآرامية هي السائدة بالرغم من سعة انتشار اليونانية. كانت الآرامية لا تزال لغة الشعب إبّان القرن الميلادي الأول، ولم تنافسها إلاّ اللغة العربية بعد قدوم المسلمين. واستمرت الآرامية حتى زمن طويل ولم تنطفئ تماماً لأنها لا تزال محكية في بعض قرى ومناطق سوريا ولو بصبغة متغيرة كثيراً. إن شهرة الآرامية الرسمية كلغة الثقافة والشئون الدولية أخّرت استعمالها للأغراض الأدبية، مثلما أخّرت اللاتينية استعمال اللهجات المحكية في إيطاليا للشئون الأدبية مثلاً. إلاّ أن فرقاً أخذت تستعمل لهجاتها المحلية في الممالك داخل سوريا للكتابة بدلاً من الآرامية الرسمية. ويمكننا أن نميز أربع لهجات سادت الآرامية الغربية هي:

* **الآرامية اليهودية الفلسطينية** : ظهرت هذه اللهجة في جنوب سوريا

وفلسطين بالكلمات الآرامية والتعابير الواردة في يونانية العهد الجديد وقد بقيت هذه العبارات بصيغتها الآرامية في العهد الجديد (متى ٢٧: ٤٦، مرقس ٣: ١٧، ٥: ٤١، ٧: ٣٤، ١٤:٣٦، ١٥: ٣٤، أعمال الرسل ٩: ٣٦، ١: ١٩، ١ كور ١٦: ٢٢، روم ٨ :١٥، غلاطية ٤: ٦). وكانت آرامية الجليل هي اللهجة التي نطق بها المسيح ورسله وهي تختلف اختلافاً واضحاً عن لهجة الجنوب السائدة آنذاك في أورشليم وما حولها (متى ٢٦: ٧٣). وقد كُتب التلمود وأقدم المداريش بهذه اللهجة الجليلية نفسها. وبهذه اللهجة أيضاً جاء ترجوم "يوناثان" المنحول والترجومات الأورشليمية ونتف من الترجوم الفلسطيني بنوع خاص. أما طريقة النطق بهذه اللهجة فليست أكيدة رغم ما تقوله القراءات الرابينية.

* **الآرامية السامرية** : إن السامريين ترجيحاً للتناخ بلهجتهم الخاصة التي تقرب كثيراً من اللهجة الجليلية. وقد كتبوا بها أيضاً قطعاً طقسية وأناشيد وقصائد وهي غير العبرية السامرية التي استعملت في الكتابات الدينية حصراً. أما الأبجدية الغريبة التي كتب بها السامريون آراميتهم فهي تطور محلي للخط الكنعاني القديم. وقد زالت هذه اللهجة بعد الدخول الإسلامي وحلت العربية محلّها.

* **الآرامية الفلسطينية المسيحية** : استمر المسيحيون الأولون في فلسطين دون شك يستعملون اللهجة المحلية فيما بينهم، وأصبحت اليونانية اللغة الرسمية للديانة الجديدة وبها كتب العهد الجديد ما خلا إنجيل متى الآرامي. وشعرت الجماعات المسيحية التي انتحت جانب البيزنطيين في بلاد الشام بحاجة إلى نصوص دينية بلهجتهم الخاصة، فقامت بترجمات معظمها من اليونانية لكلا العهدين ولعدة رتب طقسية، وتدعى اللهجة في الجنوب "آرامية فلسطينية المسيحية" التي كانت مستعملة كذلك لدى مسيحيي مصر الناطقين بالآرامية.

* **الآرامية الغربية الحديثة** : ازدهرت هذه اللهجة في منطقة من سوريا ولا زالت هذه الآرامية مستعملة في ثلاث قرى واقعة في الشمال الشرقي من دمشق وهي: معلولاً وبخعا وجبعدين، وقد عانت تغييراً كبيراً وتأثرت إلى حد بعيد في نحوها وألفاظها باللغات التي سادت في دمشق وما حولها، ولكنها تعتبر لغة حية للآرامية الغربية.

٤- الآرامية الشرقية :

كان للآراميين الذين انتشروا في منطقة دجلة والفرات لهجاتهم المحلية الخاصة المختلفة عن الآرامية الرسمية. وقد أصبح بعض هذه اللهجات مكتوباً. ومستعملاً للأغراض الأدبية أيضاً. وانتشرت هذه اللهجات المحلية حتى في جبال أرمينيا وآشور. ويمكننا أن نميّز في هذه الآرامية الشرقية أربع فئات أيضاً:

* **الآرامية البابلية** :

آرامية بابلية يهودية : وهي ظاهرة في التلمود البابلي وفي وثائق ترقى إلى ما بين القرنين الثاني والسابع للميلاد. ولم تكن هذه اللهجة موحدة، ويبدو اختلاف صيغها حتى في التلمود نفسه. أما كيفية التلفظ بها؛ فشأنها شأن الآرامية (اليهودية – الفلسطينية)، وهي تتبع الطرق المصطلحة لدى السلطات الرابينية التي كانت تتداولها.

* **اللغة المندائية** : كتب المندائيون بجنوب العراق أدبهم بهذه الآرامية الشرقية. فهناك وثائق لهذه الديانة المستقلة كتبت بلغة تطورت محلياً من الآرامية القديمة، قد تكون صيغة صافية من الآرامية الشرقية غير المتأثرة بالعبرانية، كاللهجة اليهودية، أو باليونانية، كما هي الحال مع السريانية. ولكن الوثائق التي وصلتنا بهذا

اللهجة ترقى جميعها إلى حقبة متأخرة، وقد طرأ عليها تغيير لفظي كبير وتأثرت كثيراً باللغة العربية.

* **اللغة السريانية** : لابدّ أن هذه اللهجة التي أصبحت اللهجة للآرامية الشرقية، وكانت مستعملة كلغة أدبية للسريان/الآشوريين في سوريا وشمال ما بين النهرين قبل العهد المسيحي. إلا أن النصوص القليلة الباقية والعائدة إلى القرن الأول الميلادي لا تتيح لنا البتّ في هذا الأمر. أما في منطقة الرها الآرامية؛ فقد حلّت فيها مدرسة مسيحية محل المركز الوثني وتطورت الآرامية الشرقية فيها إلى لغة أدبية مزدهرة ارتفع شأنها عالياً لا سيما بعد أن اتخذتها المسيحية لغة الدين والآداب لها. وفي القرن الخامس عندما ثارت الجدالات العقائدية في الشرق، استفادت اللغة من ذلك فائدة عظمى، إذ راحت كل فئة تعمل على صقلها واغناء مفرداتها وضبطها لتكون قادرة على التعبير عن حاجات الناس كلها، اللاهوتية والفلسفية والعلمية والطبية والفلكية واليومية. وكان للانغزال الذي سببته هذه الجدالات أثره العميق أيضاً في كلتا الفئتين الشرقية والغربية وفي تطور اللغة فيها، إذ اخذت الاختلافات اللفظية والكتابية تبرز واضحة منذ نهاية القرن السادس الميلادي. وهكذا انقسمت اللغة الآرامية من حيث اللفظ والخط إلى سريانية شرقية وسريانية غربية.

وقد جاهد المسيحيون للذّود عن لغتهم ضد التاثير البيزنطي المتصاعد، ولكنهم لم يفلحوا في منع تسرّب اللغة اليونانية إلى اللغة السريانية، بيد أنهم افلحوا في نشرها في البلاد الفارسية ومنها إلى البلدان الشرقية، ثم إلى الشرق الأقصى؛ إلى الصين والهند. وما زالت متداولة في الهند لدى السريان الملباريين والملنكاريين كلغة طقسية. أما في المنقطة الغربية فقد امتدت إلى آسيا الصغرى

وبلاد الشام، ودخلت البلاد العربية. وكان تأثيرها كبيراً على لغات كثيرة كالعربية والأرمنية والإيرانية، حتى استعملها الوثنيون والمانويون أنفسهم لأغراض دينية. ثم تقلص نفوذها بعد الدخول الإسلامي أمام اللغة العربية فظلت لغة أدبية حتى القرن الرابع عشر ولم تزل لغة طقسية لدى الكنائس السريانية الشرقية والغربية. فعندما سيطر العرب على بلاد آرام التاريخية والعراق في القرن السابع الميلادي بدأت تتراجع اللغة السريانية مقابل اللغة العربية خصوصاً عندما أصدر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان مراسيم تعريب أدارة الدولة عام ٧٠٥م . ولكن لم تنتهي رسالة السريان الحضارية فقد لعبوا دوراً رئيسياً في حركة الترجمة التي شجعها الخلفاء المتنورين من العباسيين (مثل الأمين والمأمون)، ولقد كان الانتاج الفكري للسريان غزيراً وخاصة في الطب والفلسفة و تركوا تأثيراً كبيراً علي الثقافة العربية.

كتابة سريانية من القرن ١١.

* **اللهجات الآرامية الحديثة** : ما زالت لهجات الآرامية الشرقية (السورث) محكية لدى الجماعات المسيحية القاطنة في جبال آشور والقرى المسيحية

الواقعة في شمال شرق سوريا وشمال العراق وعلى الضفاف الشرقية من بحيرة أورمية وجبال طور عبدين. ولم يتخلّ عنها أصحابها الذين ونزحوا إلى أمريكا أو أوروبا أو غيرهما من الأقطار البعيدة. إلا أنه قد طرأ عليها (السورث) – على غرار الآرامية الغربية الباقية إلى الآن– تغيير كبير في اللفظ وتأثرت بالظروف وباللغات المجاورة كالعربية والتركية والفارسية وأخذ المتحدثون بها يستعملونها للأغراض الأدبية أيضاً منذ القرن السابع عشر تحت تأثير المراسلين الغربيين؛ فينشرون بها صحفهم ومجلاتهم وكتبهم، فسادت في هذا المضمار اللهجة الأورمية.

* لهجات أخرى :

هنالك لهجات آرامية أخرى كالمندعية والتدمرية والنبطية والحضرية وغيرها ولكن لافارق كبير بينها. والتدمرية –(مملكة تدمر الواقعة في وسط سوريا وعاصمتها تدمر وتسمى بالميرا)– والنبطية هما لهجتان آراميتان (الأنباط: أنباط الدولة النبطية في الأردن وعاصمتها سلع بالآرامية أو البتراء باليونانية).

خلاصة القول: إن الخط الذي اقتبسه الآراميون الأولون من جيرانهم الكنعانيين سكان الساحل السوري أصبح مصدراً لمعظم الكتابات الحالية. فانتشرت إحدى صيغه في آسيا الصغرى الواقعة إلى الشمال من سوريا ومنها انتقلت إلى بلاد اليونان حيث اعطت الأبجدية اليونانية التي صبحت بدورها مصدر اللاتينية الغوطية والأبجدية القورلية المستعملة في أوروبا والكتابات القبطية في مصر. وهناك صيغة أخرى انبثقت منها الكتابة البهلوية في إيران الوسطى ومن خلالها الأفستية والسغدية والأبجدية المانوية التي منها أتت لكتابات الويغورية والمغولية والمانشؤية والكالموكية واليورياتية. واعطت صيغة أخرى منها الكتابات الخروشتية والبرهمانية ومن خلالها الكتابات التيبتية وكتابات مستعملة في الهند والجنوب الشرقي من

آسيا واندونيسيا. وإحدى صيغها الأخرى كانت مصدراً للكتابة الارمنية التي منها جاءت الكتابات الجيورجية والقفقاسية. وعن إحدى صيغها نتجت أيضاً الكتابة العربية المربعة والخطين التدمري والنبطي، ومن هذا الأخير جاء الخط العربي بأشكاله العديدة في الفارسية والتركية والاوردية والمالوية. وقد تفرعت الكتابة المانديةالغربية أيضاً من إحدى صيغ الكتابة الآرامية.

* الأدب الآرامي :

لم تؤد التنقيبات الأثرية التي أجريت حتى اليوم إلى العثور على الكثير من آثار الأدب الآرامي القديم في مناطق سوريا (بلاد آرام)، ومن أهم ما عثر عليه من الأدب الآرامي نقش "كيلاموا" ملك شمأل، ونقش آخر يمثل ملك "غوزانا" (في تل حلف حالياً)، ونقش تل الفخارية وهم من الآثار الآرامية في سوريا على نهر الخابور وهي (بلاد آرام) الجزيرة السورية قلب العالم الآرامي القديم. ولعل مرد قلة المكتشفات يعود إلى عوامل مناخية والتي لم تبق على الشيء الكثير من هذه الآداب القديمة لأن أكثرها كتب على لفائف من البردي أو على الجلد، وهي مواد لا تصمد لعوادي الزمن كالحجر.

* نقوش :

♦غوزانا وشمأل وتل الفخارية :

تعتبر غوزانا إحدى الممالك الآرامية في سوريا، ويعتبر نقش ملك غوزانا من صلب الأدب الآرامي، إضافة للنصوص الملكية الآرامية والتي تعود إلى منتصف القرن الثامن والتاسع قبل الميلاد في بلاد آرام في الجزيرة السورية، ونقش هدد ملك غوزانا وكذلك نقش كيلاموا ملك شمأل والنقوش الآرامية في تل الفخار،

وقد تبلور الأدب الآرامي في عدد من مدن آرام السورية، وينبغي القول أن "سيفوس" المؤرخ الروماني كتب كتابه المعروف في التاريخ القديم أولاً باللغة الآرامية السورية القديمة في عام ٧٥م وبعد ذلك باليونانية؛ وهو النص الذي وصل إلى أيدي الباحثين. ويتضح أن اللغة الآرامية تطورت وأصبحت لغة الإدارة والتجارة والأدب وغدت فيما بعد لغة عالمية.

♦نص دير علا : أو (نبوءة الكاهن بلعم بن بئور)

مع ما يعتري النقوش على بعض جدران دير علا في الأردن من شكوك في ارتباطها بالآرامية لغوياً، فهي على الأرجح نصوص بلهجة آرامية قديمة كتبت بالحبر الأحمر والأسود على الجدران المكسوة بالكلس. وإن وضع النص المؤطر ومحتواه يدعوان إلى التفكير بأنه نسخة عن نص أدبي كتب مبدئياً على ورقة أو ملف من البردي أو من الجلد. ويذكر استخدام الحبر الأحمر من أجل كتابة العنوان أو بعض مقاطع العرافة. ولما كان هذا النقش قد أصيب بتلف شديد، فإن محتواه يبقى عصياً على الإيضاح، ويمكن أن يثير تفسيرات مختلفة. ومع ذلك فإن البداية تتضمن حديثاً عن رؤيا تلقاها في الليل كاهن متنبئ يدعى بلعم بن بئور وفيها خبر سيء. وفي اليوم التالي نقل الكاهن متأثراً هذه الرؤيا إلى الناس الذين يحيطون به. ولا يعرف شيء آخر من مضمون هذه الرؤيا.

♦نصوص فيلة : أو (سيرة الحكيم أحيقار)

بين المخطوطات الكثيرة التي عثر عليها في جزيرة فيلة (وهي الفنتين) مقابل أسوان (سيين) في الصعيد؛ يمكن التعرف على عدد من النصوص الآرامية من عصر آرامية الإمبراطورية. أما أهم هذه النصوص فهي أمثال الحكيم أحيقار وقصته، وكانت هذه النصوص متداولة زمناً طويلاً في المدارس الآرامية في العصر

الفارسي، وقد بقيت سيرة أحيقار إثراً شعبياً معروفاً في الشرق الأدنى القديم كله كما يتضح من الترجمات المأثورة في عدد من الآداب الشرقية، ولاسيما في الأدب السرياني. أما النواة الأساس في كتاب أحيقار فتتألف من مجموعة أمثال باللغة الآرامية الغربية من مصدر سوري قديم. وقد انتظمت هذه الأمثال في قصة تروي ما أصاب أحيقار من سعد ومن نحس، وهو «الحكيم البارع مستشار آشور كلها، وحامل أختام سنحريب ملك آشور». وبقي اسم أحيقار مشهوراً في عصور لاحقة، لأنه يرد في لوح مسماري من العصر الهلنستي أدرجت فيه قائمة بأسماء عدد من المشهورين وفيهم أخوقار وهو أحيقار المذكور هنا على الأرجح. وقد عاش في مطلع القرن السابع قبل الميلاد. أما النسخة الأخرى لسيرة هذا الحكيم الآرامي فكتبت بلغة آرامية وبلهجة شرقية رافدية (لهجة الجزيرة السورية)، وكان هدفها ترسيخ قيم الشرف والأمانة والإخلاص لتربية أجيال من الكتّاب والموظفين الذين كانوا يعدّون للعمل في خدمة الدولة في آشور وبابل وفارس.

◂ **نقش بهيستون** : أو (تعاليم الملك دارا / داريوس / داريوش بالآرامية)

ويتضمن هذا النقش نصًا تعليمياً لتأهيل الموظفين، وهو في الأصل نقش ملكي حُوّل إلى نص مدرسي. وهذه وسيلة من الوسائل التي كانت تتبع لترسيخ الفكرة الملكية والإخلاص في رؤوس أولئك الذين يعدّون للعمل في الدواوين في أنحاء الإمبراطورية. يعود هذا الأثر إلى الأيام الأولى من حكم العاهل الفارسي داريوس الأول (٥٢٢/٥٢١) ق.م. وهو النسخة الآرامية من نقش تاريخي أُعدّ بالخط المسماري وبلغات مختلفة كانت معروفة في بلاد الإمبراطورية، هي الفارسية والعيلامية والبابلية، ليعمم ويعلن في مختلف الأصقاع.

ويمكن تأريخ النص الآرامي لنقش بهيستون في الربع الأخير من القرن

الخامس قبل الميلاد أي بعد قرن تقريباً من اعتلاء داريوس الأول العرش، وهو يؤكد إضافة إلى ملاحظات أخرى، استخدام النص الآرامي في تعليم سيرة الملك ومآثره في مدارس الإمبراطورية الفارسية وفي تربية أتباعه على الولاء له. وقد كتب النص الآرامي لنقش بهيستون على ملف بردي طوله نحو ثلاثة أمتار، ويتألف من ١٩٠ سطراً، وفيه رواية لأخبار الحملات الأولى التي قام بها داريوس الأول لتوطيد أركان عرشه وقمع عدد من الثورات. وتتضمن الخاتمة وصايا وتعاليم أخلاقية موجهة إلى من يتولى الحكم بعده، وفيها تحذير من الكذب والكذابين ودعوة إلى الصدق وقول الحق، وتبشير بمباركة الإله أهورا مزدا للصادقين ولأبنائهم من بعدهم.

نصوص قمران : أو (مخطوطات البحر الميت الآرامية)

وهي مخطوطات كتبت بالآرامية والعبرية عثر على عدد منها في مغاور قريبة من البحر الميت في فلسطين ١٩٤٧م، وقد أدى العثور عليها إلى كشف النقاب عن نصوص آرامية مهمة يمكن تعرف مضمونها بمقارنتها بنصوص موازية في لغات شرقية أخرى معاصرة. ويبدو لأول وهلة أن معظم هذه النصوص الآرامية كتب ما بين القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد. ومن أهم هذه النصوص أربع مخطوطات من سفر طوبيا. وليس من شك لدى الباحثين اليوم في أن هذا السفر كان قد كتب، أول الأمر باللغة الآرامية، ومن المحتمل أن ذلك كان ما بين القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد بتأثير قصة أحيقار التي يفترض أن كاتب السفر قد عرفها. وهناك أيضاً سفر أخنوخ، الذي يضم الكتاب السماوي وكتاب الحراس وكتاب الأمثال وكتاب الحكماء ورسالة أخنوخ ويمكن أن يضاف إليها كتاب العمالقة. كان سفر أخنوخ معروفاً بفضل الترجمة الحبشية، ولكن بعد العثور على إحدى عشرة نسخة مخطوطة بالآرامية من هذا السفر في المغارة رقم ٤ في موقع قمران؛ غدا من

الواضح أن الآرامية كانت اللغة الأصلية للنص.

عثر على نصوص أدبية متنوعة من مصادر مختلفة مثل نص صلاة نبو نيد، ونص مزيّف عن التكوين من الممكن أن يعود إلى القرن الثاني أو الأول قبل الميلاد. وكذلك ترجوم سفر أيوب. واستخدمت اللغة الآرامية إلى جانب اللغة المصرية الديموطيقية في كتابة بعض النصوص. ويوجد نص سحري مزدوج اللغة كتب بالمسمارية البابلية وبالآرامية ويعرف بنص أوروك (الوركاء)، وكان أول من قرأه وترجمه فرانسوا ثورو دانجان، ثم نشره أندره دوبون ـ سومر.

* الحضارة الآرامية :

* الدين :

يضم مجمع الأرباب عند الآراميين في الميثولوجيا السورية آلهة من كنعان وبابل وآشور، إضافة إلى آلهتهم الخاصة بهم. وللإله عند الآراميين اسم عام هو بعل بمعنى سيّد، ويدعونه أحياناً بعل شميين (رب السموات) كما في نص ذكر ملك حماة ولعش. وعبدت إلى جانب بعل الربة الأنثى بعلت التي كانت تدعى ملكة شميين (ملكة السموات). ولبعض المناطق والمدن بعلها الخاص بها كبعل مملكة تدمر وبعل الأمانوس جبال الساحل السوري وبعل البقاع (بعلبك). وسمى الآراميون بعل هدد كإلهاً للطقس كما في دمشق؛ يرسل الأمطار فيخصب الأرض وينبت الزرع ويسبب الكوارث عندما تنحدر السيول من الجبال إلى الوديان. وكان مقر بعل في الجبل الأقرع (كاسيوس) في اللاذقية الذي كان له في حضارة سوريا القديمة ما لجبل الأوليمب عند اليونان في تاريخهم القديم. وكانوا يعتقدون أن الزوابع والرعود والبرق من الظواهر التي تدل على هدد الذي كان يطلق عليه في السامية الشرقية اسم أدد أو أدو ويدعى أيضاً رمون. وبتأثير الحوريين أدمج هدد

برب العاصفة عند الحوريين تيشوب ورشف عند الحيثيين. وكما تدل الشواهد الفنية يبدو هدد في نحت بارز من شمأل (سمآل) الواقعة في أعالي الأمانوس، في صورة رجل محارب حاملاً الشوكة الثلاثية والمطرقة رمز البرق والرعد. وفي ملاطية يبدو واقفاً على ظهر ثور.

* الآلهة الآرامية :

كانت أهم معابد "هدد" في دمشق وحلب ومنبج (هيرابوليس) وبعلبك (هليوبوليس). وفي العصر الروماني عبد هدد في بعض المعابد بتأثير الثقافة الكلاسيكية (اليونانية – الرومانية) باسم "جوبيتر"، وعرف في دمشق باسم جوبيتر الدمشقي. وفي منبج عبدت الربة السورية "أثارغاتيس" إلى جانب هدد، وكانت هذه الربة صورة مطبوعة بالهلينية لـ"عشتارت" و"عنات"، وكانت تدعى أيضاً "بنيت" أي ربة الذرية والنبوة وقد حمل الآراميون عبادتها من جبل سمعان وجبل بركات في سوريا إلى وادي النيل، ووصف الكاتب السوري لوقيان السميساطي (١٩٢:١٢٥)م، الذي كتب باليونانية، معبدها في منبج في كتابه عن الآلهة السورية. واختلطت عبادات الآراميين بعبادة آلهة أخرى عند جيرانهم في سوريا الساحل أو عند البابليين، مثل "إل" الكنعاني الذي كان يعد أباً لكل الآلهة، وأقاموا لهم بيوت العبادة حيثما حلو، و"سن" إله القمر عند الرافديين ويدعى بالآرامية "شهر"، و"نابو" رب الحكمة في بابل الذي حملوا عبادته حتى أسوان، و"شمش" إله الحق والعدل في آشور وبابل.

وعلى الرغم من قلة المصادر عن شعائر العبادة فإنه من المؤكد أن الحياة الدينية لم تشغل الآراميين كما شغلت المصريين القدماء، إلا أنهم كانوا يرغبون في كسب مرضاة الآلهة من دون أن يكون لديهم تصور واضح عن العامل الآخر.

لكن نصوص باناموا (من شمأل) تذكر الطعام والشراب مع هدد بعد الموت، وكان للسحرة مكان بارز بين الكهنة كما تشير نصوص سفيرة.

* الفنون الآرامية :

لم يعثر إلا على عدد قليل من الآثار التي تصلح شواهد على الفن الآرامي. فقد شجع أمراء بيت بخياني في الجزيرة وشمأل في كيليكية والأمانوس فناً تشكيلياً سوريّاً متأثراً بالفن (الحوري – الحيثي). ومن المؤكد أن السوريين في هذه المنطقة الشمالية من البلاد كانوا يرتدون ملابس كملابس الحوريين الميتانيين والحيثيين، وقد انعكس ذلك على الفن التشكيلي، ومع ذلك فإن الفنانين الآشوريين الذي زينوا القصر الآشوري في تل برسيب (تل أحمر) صوروا الآراميين على شاكلة البدو. كما صوروا آراميي بابل ملتحين ويرتدون مآزر قصيرة ويضعون عمائم على رؤوسهم، أما النساء فكنّ يرتدين أثواباً طويلة. وهكذا فإن الفن التشكيلي، التصوير والنحت، عكس البيئات المختلفة للمجتمعات الآرامية.

وتبدو الخصوصية في الفن الآرامي في العمارة، فالقصور تتصف بالغرف الواسعة، وتؤدي إليها أبهاء تحمل أسقفها أعمدة منقوشة ومزينة بالنحت الجميل ولها شرفات واسعة من نموذج حيلاني، كما في تل حلف وعين دارة (وسط سوريا). ويبرز تطور فن العمارة في الأبواب وإكساء الجدران. وفي بناء العتبات بالحجر البازلتي. أما التماثيل الكاملة المكتشفة فقليلة، وأهم المنحوتات عثر عليها في القبور الملكية في تل حلف وشمأل. أما التصوير فإن الرسوم الجدارية تمثل مشاهد من الحروب والصيد والرحلات النهرية والبحرية وموضوعات ميثولوجية. وفي رسوم عن الطبيعة تختلط صورة الإنسان بمخلوقات أخرى كما في

(الإنسان – العقرب) (من تل حلف). وتبدو التأثيرات المصرية في أسلوب مسلّة برهدد التي نذرها للإله "ملقرت" (من القرن التاسع قبل الميلاد) .

شجع أمراء الممالك الآرامية السورية في بيت بخياني وغوزانا في الجزيرة السورية وسآل في كيليكية والأمانوس الفن التشكيلي بامتياز وإبداع واضح يدل على مدى ما وصل إليه الآراميون في سوريا القديمة من تقدم، ويوجد تشابه بين الفن الآرامي والفن (الحوري – الحيثي).

ومن المؤكد أن السوريين في هذه المنطقة الشمالية من البلاد كانوا يرتدون ملابس تشابه مع ملابس الحوريين الميتانيين والحيثيين من الممالك السورية الشمالية، وقد انعكس ذلك على الفن التشكيلي السوري القديم، ومع ذلك فإن الفنانين الآشوريين الذي زينوا القصر الآشوري في تل برسيب (تل أحمر) صوروا الآراميين بملابس مميزة. كما صوروا آراميي بابل ملتحين ويرتدون مآزر قصيرة ويضعون عمائم على رؤوسهم، أما النساء فكنّ يرتدين أثواباً طويلة. وهكذا فإن الفن التشكيلي الآرامي، والتصوير والنحت، عكس البيئات المختلفة للمجتمعات الآرامية، في سوريا وفي المناطق الأخرى التابعة لحضارة الآراميين.

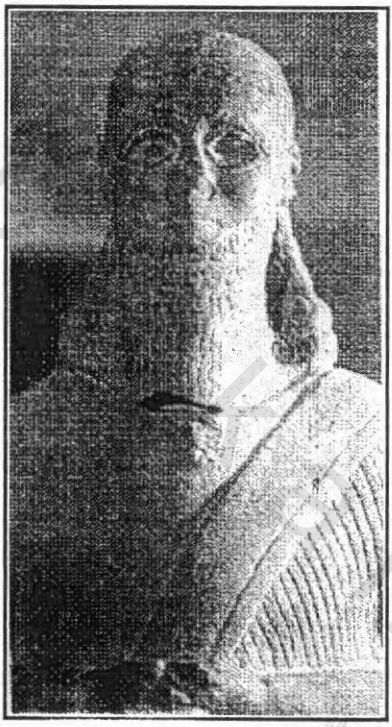

"هدد" قطعة عاجية عثر عليها في قصر حزائيل تمثال هد-يسعي الذي أقامه قدام (الاله)

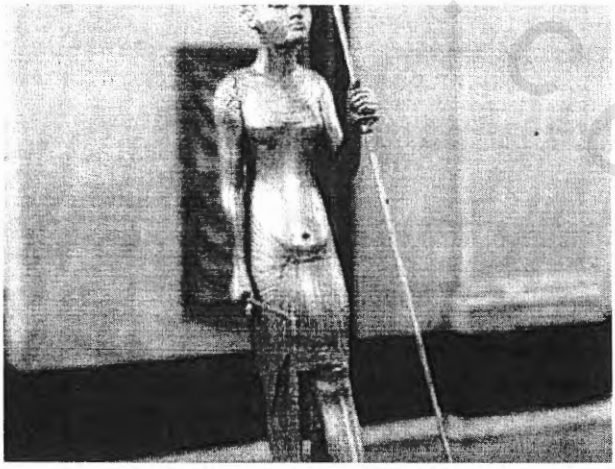

تمثال لإله آرامي يعود للقرن الثامن للميلاد في متحف آثار حماة

* مواقع أثرية :

يُفسر تأسيس الممالك الآرامية في المناطق المختلفة من سوريا، تسمية سوريا قديماً في ذلك العصر باسم «بلاد آرام»، كما أن اهتمام كثير من الباحثين بدراسة الفن الآرامي، أسهم في إغناء المعلومات عن فن الآراميين في المواقع الأثرية المختلفة ونخص بالذكر منها مايلي :

. **غوزانا :** (تل حلف حالياً) : عند رأس العين، على نهر الخابور. أظهرت التنقيبات الأثرية في هذا الموقع حصناً كبيراً مؤلفاً من معبد وقصر.

. **شمأل :** (زنجرلي حالياً) : أظهر التنقيب الأثري آثاراً تعود إلى مبنى واحد.

. **دمشق :** حافظ مكان معبد «حدد الآرامي» على قداسته عبر العصور. وقد عثر في أحد أساسات المبنى على منحوتة بازلتية آرامية، تمثل كائناً له رأس إنسان يعلوه تاج، وله جسم سبع مجنح.

. **قلعة حلب:** عُثر فيها على منحوتة بازلتية، تمثل كائنين مجنحين متقابلين ومتماثلين.

. **عين دارة :** يبعد هذا الموقع الأثري عن أرفاد (تل رفعت) حالياً، مسافة نحو أربعين كيلومتراً، وقد أظهرت التنقيبات فيه معبداً هاماً وتمثال أسد بازلتي.

. **صرين :** قرب عين العرب، عُثر في هذا الموقع على نصب يمثل مشهد عربة يقودها رجلان، ونصب آخر نقش عليه رمز رب القمر «سين»، الذي اشتهرت حران وغيرها بعبادته. ويتألف هذا الرمز من هلال فوق رمز الرب مردوخ، كما عثر على تمثال بازلتي ضخم، ارتفاعه

١٩٤سم وعرضه ٤٧سم لأمير آرامي، يرتدي ثوباً طويلاً يتوسطه حزام، ويتدلى من الحزام سيف، ويحمل الأمير بيمناه عصا طويلة (الصولجان).

. **تل النيرب**: يقع جنوب شرقي حلب، ويبعد عنها ٦كم، عثر فيه على نصب يمثل سادناً جالساً خلف مائدة وليمة جنائزية، يحمل بيمناه كأساً، وأمامه خادمه، وفي أعلى النصب كتابة آرامية تتضمَّن اسم «اجبار» سادن رب القمر في حران والنيرب، وأسماء أخرى لآلهة (مثل شمس ونرجال). ويعود هذا النصب إلى نحو ٧٣٠ق.م، كما عُثِر على نصب آخر يمثل السادن «سن . زر . ابني»، يقف رافعاً إحدى يديه، ويحمل بالأخرى منديلاً وقد نُقشت كتابة آرامية تحت قوس هذا النصب.

وتميّزت عمارة الآراميين بواجهة قائمة فوق أعمدة، وتقع خلفها قاعة رئيسية لها شكل مستطيل. وتدل النصوص التاريخية على مدى اهتمام قدماء العموريين بفن العمارة العسكرية والدينية والمدنية، ويستنتج الباحثون تأثر الآراميين بالتراث المعماري المحلّي، وحسن إفادتهم منه واعتمادهم عليه في إقامة منشآتهم المعمارية. وأبدع النحاتون الآراميون روائعهم النحتية، ويلاحظ أن مادة الحجر البازلتي البركاني لم تساعدهم أحياناً في إبراز التفاصيل بدقة، مما جعل بعض منحوتاتهم يسودها طابع الخشونة. ورأى بعض الباحثين في عدد من المنحوتات الآرامية تأثيراً من الفن الحيثي الجديد وغيره.

♦ومن أشهر الروائع النحتية الآرامية هي :

. **تماثيل وأنصاب آلهة** : مثل منحوتة تمثل الرب «ملقارت»، ونقش على هذا

النصب كتابة تذكارية تاريخية، تتضمن اسم «بر حدد» ملك دمشق، الذي أقام هذا النصب للرب «ملقارت» الذي استجاب لندائه.

. **تماثيل أمـــراء** : مثل تمثال أمير من «صرين» قرب عين العرب، تمثال أمير من «عين التل» وتمثال ملك واقف، نقشت على ثوبه كتابة آشورية مسمارية وآرامية أبجدية.

. **تماثيل أســـود** : مثل تمثال أسد مكتشف في «عين دارة».

. **كائنات خيـالية** : مثل منحوتة مكتشف في أحد أساسات مبنىٰ الجامع الأموي في دمشق، تمثل كائناً له رأس إنسان يعلوه تاج، وله جسم سبع مجنّح.

. **مواضـــيع من الحياة اليومية** : مثل مشهد صيد، عربة يقودها رجلان.

. **رمـــوز** : مثل رب القمر «سين». وهناك مجسّمات الألواح، التي تغطّي جدران المباني في مداخل المدن والقلاع.

وتجدر الإشارة إلى القطع العاجية، التي كانت تزيّن عرش ملك دمشق «بر حدد»، وقد استولى عليها ملك الآشوريين تجلات فلاسر (تجلات بلاصر)، الذي استطاع أن يقضي على مملكة دمشق الآرامية عام ٧٣٢ق.م، ويعود منها بغنائم كان منها ما تبقى من روائع المنحوتات العاجية، التي تمثل مواضيع مختلفة مثل: وجه حسناء تجسّد الرّوح وتطلّ على عالم الأحياء، ومشهد بقرة ترضع عجلها .

وهناك الكتابة المسمارية الآشورية والكتابة الأبجدية الآرامية، المنقوشتان

على ثوب تمثال ملك من حجر البازلت، اكتشف جنوب شرقي تل فخيرية جنوب رأس العين، وتتضمّنان اسم «سيكاتي» حاضرة مملكة (غوزانا) .

وهناك أيضاً المعاهدة الآرامية المنقوشة كتابتها على حجر البازلت البركاني، وكانت قد اكتشفت في قناة سجين، فنقلت إلى قرية «سفيرة» قرب حلب، وهي محفوظة حالياً في المتحف الوطني بدمشق. ويعتبر نص هذه المعاهدة أقدم وثيقة تتضمن كتابة باللغة الآرامية، وتدل حروفها عل مدى تشابهها مع الحروف الفينيقية، ومدى العناية بحسن كتابتها ونقشها، وهي تعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد، وتتضمن اسم «برغايا» ملك كيتاك، و«متعال» ملك أرفاد (تل رفعت) حالياً، الذي كانْ خصم الملك الآشوري تغلات فلاسر الثالث، الذي استطاع في نحو عام ٧٤٠ق.م أن يقضي على مملكة أرفاد بعدما حاصرها أربعة أعوام. وقد جاء في نص المعاهدة عبارات تتضمن الخطر، الذي يهدّد «متعال» ومملكته فيما إذا نقض عهده. وهناك روائع الصناعات الفنية والفنون الصناعية، مثل صناعة الأواني الفخارية الجميلة المختلفة.

* نماذج للفنون الآرامية :

* معبدا عين دارة وتل حلف :

في البدء يجب أن نشير إلى ناحية هامة وهي أن العصر الآرامي هو آخر عصر في سلسلة عصور ممالك القبائل التي توالت على السلطة في بلاد الهلال الخصيب منذ مطلع الألف الثالث وحتى منتصف الألف الأول قبل الميلاد؛ حيث سقط المشرق العربي وحتى أرض الكنانة في أيدي الإخمينين وخضعت البلاد بأكملها ولأول مرة للإحتلال الأجنبي الذي جاء بعده إحتلال أجنبي آخر هو الإحتلال اليوناني ثم (الروماني / البيزنطي)، وقد دام الخضوع للإحتلال الأجنبي

منذ عام ٥٣٥ ق.م حتى بدء الفتوحات العربية الإسلامية أي ما يقارب ١٢٠٠عام. خلال هذه الفترة توالى البناء فوق العواصم الآرامية كما في دمشق أو هجرت هذه العواصم كما في تل حلف (جوزن)، وحداتو (آرسلان طاش)...إلخ، ولكن لم تطمس معالمها نهائياً كالعواصم الأسبق مثل "تل مرديخ" (إبلا)، و"أوغاريت" (رأس الشمرا) ... إلخ بل بقيت أجزاء من أوابدها ظاهرة مثل البوابات والأسوار وجوانب القصور التي لفتت إليها أنظار الباحثين منذ نهاية القرن الماضي.

وإذا نظرنا إلى الأوابد المعمارية المكتشفة حتى الآن نلاحظ أنها قصور وليست معابد والسبب هو أن المدن الآرامية التي جرت فيها تنقيبات أثرية لم تُكتشف كلها حتى الآن بل لاتزال تحت الأنقاض هذا من ناحية؛ ومن ناحية أخرى فإن الكتابات الآرامية لم تتحدث عن بناء هياكل عبادة كما تحدثت الكتابات الآشورية المعاصرة مثلاً .

* المعبد الآرامي ومخططه :

نستطيع القول أن شكل المعبد الآرامي إنما نشأ عن امتزاج تقليدين حضاريين عريقين في بلاد الشام أولهما 'المعبد الكنعاني' الآموري، والثاني بيت حيلاني (عيلاني) 'البيت العالي' الآرامي. بالنسبة للمعبد أو الهيكل الكنعاني فهو بناء بسيط مستطيل الشكل له مدخل محرابي لأن بابه يتراجع عن جدار الواجهة إلى الوراء لصالح درج وشرفتين جانبيتين فهو غائر في الجدار، ويلي الباب قاعة أمامية مستطيلة الشكل ثم المصلى الذي فيه عند الجدار الصدراني المحراب، والسدة وقد يكون فيه حوض الذبائح، والجدير بالذكر أن الأبواب والمحراب على محور واحد . أما البيت العالي فهو نوع من العمائر التي تمتاز بصفات خاصة فهو يتألف من مدخل عميق واسع وعال يرفع ساكفة على أعمدة تليه قاعة أمامية

مستطيلة ثم القاعة الرئيسية المستطيلة أيضاً، وفيها الموقد الثابت أو المتحرك وتحيط بها الحجرات من جوانبها الثلاثة، وغالباً ما نجد ببيت الدرج عند أحد ضلعي العرض للقاعة الأمامية، وهو بعد هذا كله بناء مغلق مرتفع لايصح توسيعه بإضافة حجرات إليه لأنها ستشوه المخطط. وبعد هذا الوصف الموجز للمعبد الكنعاني والبيت العالي نستطيع أن نتساءل عن شكل المعبد الآرامي الذي نشأ عن الزواج بين هذين الأسلوبين المعماريين في نمط جديد، ويتمثل الوليد الجديد في معبد عين دارة ومعبد جوزن (تل حلف).

* معبد عين دارة :

معبد عين دارة

يقع معبد عين دارة شمال حلب، وعلى بعد (٨كم) جنوب عفرين. يتألف هذا المعبد من هيكل مستطيل الشكل (٣٨×٣٢م) يتجه مدخله نحو الجنوب الشرقي تتقدمه باحة مبلطة بلوحات حجرية كبيرة (كلسية – جصية) وأخرى بازلتية صغيرة؛ ولو أنها تامة لبدت كالبساط الجميل الذي يغلب فيه اللون الأبيض على اللون الأسود، وفي زاويتها الشرقية بئر ماء مطوية جيداً وعميقة وبجانبها حوض من

الحجر الكلسي الجصي فكان يجب على كل من يدخل إلى هذا المعبد أن يغتسل أو يتوضأ في هذا الحوض ثم يدخل إلى هذا المعبد وذلك حفاظاً على طهارة هذا المكان الديني وبعد الوضوء يعبرون الباحة الجميلة ليصلوا إلى المدخل المحرابي الجميل الكبير والعميق. يربط درج خارجي عريض –(لم يبقى منه إلا جناحه الأيسر)– الباحة بالمدخل؛ ويتألف من درجات صنعت من الحجر البازلتي، ونقشت عليها أشكال تشبه الضفائر، ويصعد الدرج الأوسط إلى العتبتين؛ بينما يصعد الجناحان الجانبيان إلى شرفتين جميلتين فيهما قاعدتان بازلتيتان كبيرتان ارتكز عليهما عمودان خشبيان فحملوا السكف الخشبي، ويلي الدرج الأوسط عتبتان كبيرتان من الحجر (الكلسي – الجيري) نقشت على الأولى صورة قدمين بشريتين وعلى الثانية صورة القدم اليسرى، وما من شك في أن الباحة والدرج والعتبات عناصر معمارية جميلة ومعبرة ولكنها ليست إلا حبة جميلة في واجهة القلادة المحكمة النظم؛ فالدرج يحرسه أسدان برأس امرأة وجناحي طائر، وخلفهما من كل جانب أسدان متقابلان يلتفتان نحو اليمين ونحو اليسار، وجميعها يرقب كل زائر للهيكل. وإن كانت هذه اللوحات مشوهة الآن إلا أنها تعكس ما كان لها من روعة وجمال. وقد اصطفت تحت نسق من الأسود الجانبية التي يبلغ ارتفاعها المترين ويقوم عليها الجدار اللبني المتهدم. كما تحفل الواجهة بالمشاهد المختلفة المعبرة التي لها في نفس الناظر وقع خاص، ولكن ما أن نعبر المدخل المحاط ببرجين شامخين حتى نصل القاعة الأمامية ذات العناصر الزخرفية المتنوعة وهي مستطيلة الشكل (١٦×٦ م) يصل بينها وبين الحرم درج فاخر درجاته بازلتية مزينة بأشكال تشبه الضفائر تنسجم مع مثيلاتها التي تزين النعلة البازلتية السوداء التي ترتفع مقدار (٦٠سم) فوق الأرضية. فوق النعلة وفي الجدارين الجانبين توجد بلاطات بازلتية أيضاً عليها أشكال رب الجبل أو ضفائر تفصل بينها عوارض بارزة،

أما فوقها وفي جدارها المشترك مع الحرم فتنتصب أسود كالتي في الواجهة الرئيسية تحمل الحائط المبني باللبن، ومن هذه القاعة ندخل إلى البرج الأيمن ومنه إلى بيت الدرج الذي يلتصق بجدار القاعة الشمالي الشرقي، وإذا ماصعدنا الدرج نصل إلى عتبة كبيرة من الحجر الكلسي يحيط بها أسدان وبرجان ونقش عليها رسم القدم اليمنى لإنسان، والواقع أن نقش رسم الأقدام على العتبات الثلاث المتتالية للمعبد هو أحد أغرب المشاهد اليتيمة في هذا المعبد فهي ليست عنصراً زخرفياً فحسب بل لها دلالة يصعب علينا تحديدها ولكن من الممكن التكهن بمغزاها. إن وجود قدمين متجاورتين على العتبة الأولى يشير إلى المتعبد؛ أن قف وتمهل على العتبة الأولى، وأتل تسابيح معينة. وبعد ذلك يخطو بالقدم اليسرى إلى الأمام ثم يعبر القاعة الأمامية ويصعد الدرج ليدخل الحرم أو المصلى بالقدم اليمنى. إذاً وجود الأقدام يهدي المتعبد إلى آداب الدخول للهيكل وقد تكون لهما فائدة أو دلالة أخرى مثل الرمز إلى الرب بواسطة الجزء بدلاً من الكل ....الخ .

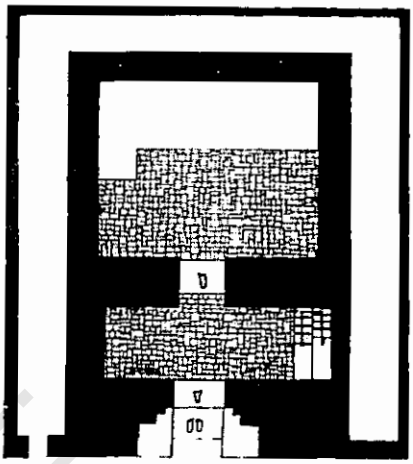

مخطط معبد عين دارة

الباب بين القاعة الأمامية والمصلى لايغلق ولايقفل كالباب الرئيسي فوجوده لا يعني الفصل ين المصلى (الحرم) والقاعة الأمامية؛ بل ترتيب الدخول إلى الحرم؛ فحين يعبر المتعبد الباب الرئيسي ليس له أن يتابع طريقه على هواه؛ بل عليه أن يتريث في هذه القاعة منتظراً دوره أو خروج الناس من المصلى أو ... إلخ. إذاً الباب يؤدي غرضاً مماثلاً لغرض الأقدام؛ وجميعها تعكس تعلق القائمين على المعبد في الحفاظ على قدسيته، وتدل على حبهم وتعلقهم بضوابط الأمور.

لقد أصاب الحرم الخراب والدمار وعبثت به أيدي السكان ومع ذلك لازالت فيه عناصر تشهد على كيفية تقسيمه وحسن بنائه وجمال زخرفه. لقد خصص ثلثه الأخير تقريباً للسدة التي يتقدمها المحراب وتوضع فوقها التماثيل، أما القسم الباقي فظل للمصلين؛ فقد كانت تزين حائطه نعلة بازلتية نقش عليها زوج من الأشكال الرشيقة التي تشبه الضفائر وتعلوها لوحات مزخرفة، ثم الجدار اللبني. وتشير الدلائل المتوافرة حتى الآن إلى أن هذا المعبد قد أحيط بعد بنائه برواق يعتبر أشهر قسم فيه، ويرتفع الرواق فوق الأرض المجاورة مقدار (١.٧٠م)، وقد غطيت صفحته بعدد كبير من اللوحات البازلتية المزينة بأشكال الأسود وأبي الهول

التي تلتفت نحو اليسار أو اليمين؛ وقد صنعت بحيث يتقابل أسدان أو اثنان من تماثيل أبي الهول؛ وتعتبر هذه التماثيل أيةً في الإبداع والإتقان. وكان للرواق مدخلان أحدهما عند الزاوية الشرقية للمعبد، والآخر عند الزاوية الجنوبية للمعبد، وقد سُد الذي عند الزاوية الجنوبية فيما بعد، وتخرب الذي عند الزاوية الشرقية. وبما أن الرواق مرتفع فوق الأرض المجاورة فكانت له أدراج لم تبقى منها بقية. وأقيمت في الرواق أنصاب من حجر البازلت تكسر معظمها، ويبدو أن عددها كان (٣٠ نصباً) جعلت متقابلة ونقشت عليها مشاهد مختلفة منها : رجلاً يقود ثوراً أو يقف لوحده، أشجار النخيل، ملك يجلس على العرش .....إلخ. ولقد استخدمت الأنصاب التي زاد ارتفاعها على (٣أمتار) كعمد لسقف الرواق الذي لم يكن له جدار خارجي وكان سقفه أقل ارتفاعاً من سقف المعبد.

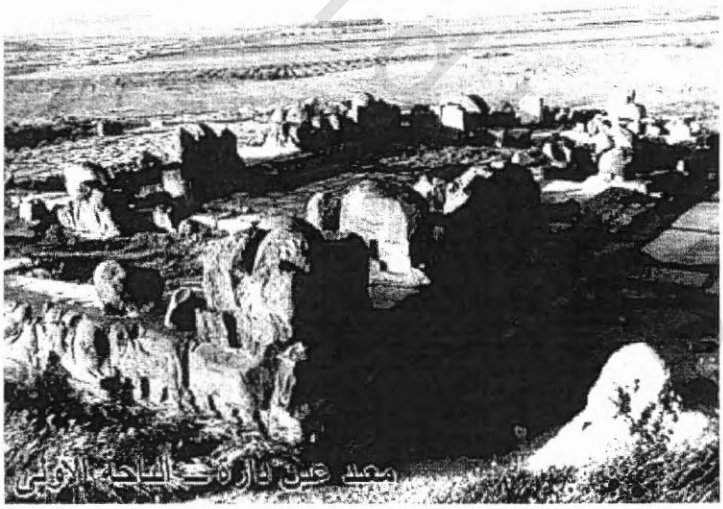

لقد بلغت هندسة البناء الآرامية أوجها في هذا المعبد الذي بني لرب نجهل اسمه ولعله بني للربة عشتار التي عثرنا على رسمها بالزي الحربي فوق لوحة بازلتية جميلة اكتشفت مقلوبة قرب الزاوية الغربية للقاعة الأمامية. وفي الواقع أن

هذا المعبد الشامخ فوق أنقاض مدينة لانعرف اسمها حتى الآن؛ ومافيه من الإفراط في التزويق بالأشكال المنقوشة على الأحجار البازلتية قد جرى تصحيحه وإنشائه ليجمع بين التقاليد المعمارية العريقة وليكون بحق أروع أثر معروف في صناعة البناء.

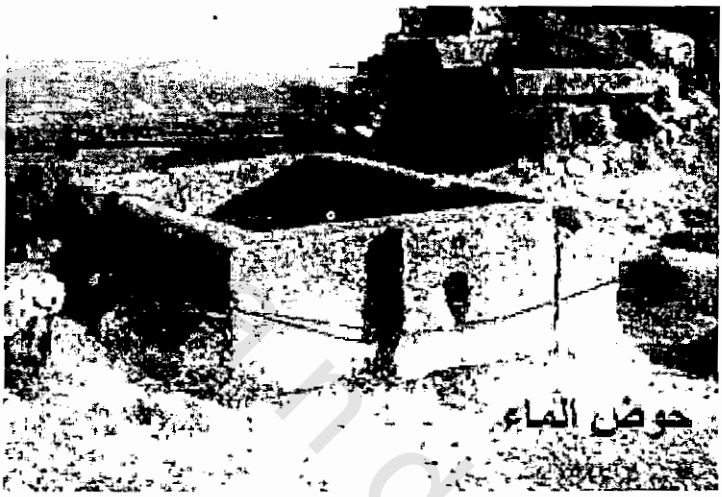

حوض الماء

♦فن النحت في عين دارة :

إن فن النحت عند الآراميين كان متصلاً اتصالاً وثيقاً بالعمارة حتى كاد أن يكون جزاً منها، ونظرة واحدة نلقيها على معبد "عين دارة" المكتشف حديثاً تتضح لنا هذه الحقيقة بكامل أبعادها فاللوحات المنقوشة والأنصاب هي الجزء الأهم في المعبد فهي زخارف وقواعد جدرانه حاملة لسقفه وهي فوق ذلك على أصناف هي:

١. اللوحات التي تكسو أجناب مصطبة المعبد :

يبلغ عددها سبعون قطعة نقشت عليها صور أبي الهول والأسد بمنتهى الجودة والإتقان حيث تبرز أجسام الحيوانات عالية فوق السطوح الملساء المستوية وتلتف برؤوسها ذات اليمين أو ذات اليسار، ويبدو أن لفت الرؤوس على

هذا النحو هو الذي جعل الأجسام تظهر وكأنها مجسمة رغم أن أحد جانبيها ملتصق باللوحة. وقد وزعت الحيوانات على أزواج يألف كل زوج من أسدين أو أسد وأبي الهول أو اثنين من أبي الهول متقابلين يسير الواحد نحو الآخر غير أن سيرها بطيء بحيث تبدو وكأنها ساكنة لا تؤثر الحركة بأجسامها المليئة الملساء.

اللوحات التي تكسو أجناب مصطبة المعبد تمثل أبو الهول المجنح

معبد عين دارة ـ تمثال أبو الهول المجنح

من منحوتات معبد عين دارة

ونلاحظ هنا كما لاحظنا في منحوتات جوزن وشمأل أن النحاتين قد عزفوا عن إظهار العناصر الكثيرة في أعضاء الجسم؛ ويبدو أن قصدهم من ذلك كان رسم حيوانات هادئة وقورة وليس حيوانات مهاجمة أو متوثبة، ويتجلى هذا القصد واضحاً من ذيول الحيوانات التي تلتوي بين القائمتين الخلفيتين في حركة لاتكون إلا في حالة السكون أو السير البطيء، ورغم أن هذه الحيوانات مشوهة لكنها لاتزال تحتفظ برونقها وجودة صنعتها ووقارها وهي تعبّر بجلاء ووضوح عن قيمة المعبد التي تسمو في ذهننا حينما ننظر إلى المجموعة الثانية من المنحوتات.

٢. قواعد الجدران :

وهي على شكل عضادات من البازلت زينت واجهاتها بمقادم الأسود أو أبي الهول؛ وليس بين الأسود لبوة واحدة أما أبي الهول فهي مذكرة ومؤنثة. وبما أن أجسام هذه الحيوانات كبيرة لذا كانت رؤوسها كبيرة أيضاً وفي هذه الحالة كان الفنان يؤلف بين جميع العناصر؛ في الواجهة الجدار العالي وقاعدته، وفي المصطبة

وكسوتها، وانطلاقاً من هذه القاعدة جعل الرؤوس بارزة للأمام لتشكل شريطاً أفقياً موازياً لشريط رؤوس حيوانات لوحات المصطبة. وبعد هذا كله فإننا لانجد في هذا النموذج من المنحوتات أجساماً كاملة فكل ما هناك رأس ولبدة وقائمتان أماميتان؛ أما اللبدة فتحيط بالرأس كالإكليل، وأما القائمتان فتنتهيان إلى مخالب غاية في الدقة والإتقان والواقعية .

تماثيل قواعد الجدران

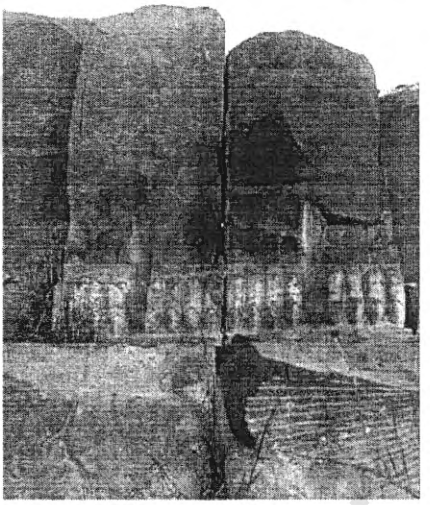

٣. المجموعة الثالثة :

وتضم أنصاب الرواق البالغ عددها ثلاثون قطعة ومن المؤسف حقاً أن معظم هذه الأنصاب مشوهة ومع ذلك بقي منها ما يدل على هويتها، وأول مانلمحه من هذه البقايا الباقية من الأنصاب أن المواضيع المنقوشة عليها متنوعة : (فهنالك رجل يقرب القربان، والملك على العرش، والمحارب، وشجرة النخيل)، وقد نقشت الأشكال البارزة على سطوح الأنصاب الملساء، والأجزاء الباقية منها تنم عن قدرة فائقة على تصوير جذع النخلة، وثوب الملك المزركش وكرسيه،

وقوائم الثيران، والرجال؛ ويشعر المرء وهو يتأملها أنها كانت أعمالاً باهرة تؤلف بمجموعها معرضاً لفن النحت في هذه المدينة .

٤. المجموعة الرابعة :

وتضم اللوحات التي كانت تزين الجدارين الجانبين للقاعة الأمامية وسلسلة الأحجار التي كانت تكسو الجزء السفلي من محراب المصطبة في المصلى. إن نقوش هذه القطع غاية في الدقة والإبداع وتتألف من أشكال رب الجبل التي تحيط بها الأشكال المركبة من إنسان وحيوان، وبما أن نقوش لوحات القاعة الأمامية مشوهة فسنكتفي فقط بدراسة نقوش محراب المصلى؛ حيث عثر على ٧ قطع نقش؛ على خمسة منها مشهد مؤلف من رب الجبل في الوسط وعلى جانبيه (الإنسان – الثور) ، وعلى القطعتين الأخريين مشهد مؤلف من رب الجبل في الوسط وعلى جانبيه (إنسان برأس أسد وأجنحة)؛ أو (إنسان برأس نسر وأجنحة)، ويقف رب الجبل رافعاً يديه إلى الأعلى وينظر إلى الأمام ويرتدي تاجاً ذا ستة أزواج من القرون وثوباً طويلاً ذا أكمام قصيرة يشده حزام ثلاثي إلى خصره، وزُيِّن الجزء السفلي من الثوب فوق الأطراف السفلية بأربعة صفوف من الأشكال الحرشفية النافرة التي تشبه حبك الدرع وبزوجين من الجريد، والشيء الملفت للنظر في صورة رب الجبل هو قدماه اللتان صورتا من الجانب وليس من الأمام كما كان يتوقع، وترتدي الأشكال المرافقة قميصاً قصيراً وتلتفت نحو رب الجبل، وترفع الأيدي إلى الأعلى مقلدةً رب الجبل. وتمتاز الأشكال بحيويتها وقوتها وببروزها القوي فوق السطوح الملساء المستوية، ولشدة بروزها تبدو وكأنها تماثيل تستند إلى جدار أو تقف أمامه.

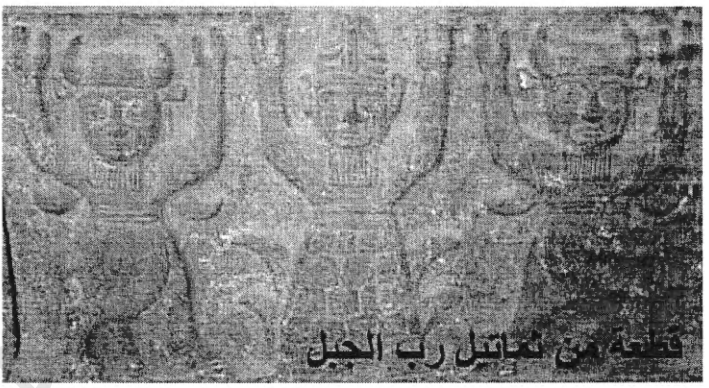

قطعة من تماثيل رب الجبل

تمثال ورأس الإلهة عشتار
المكتشفان في عين دارة

وبعد استعراض هذه النماذج من منحوتات عين دارة لابد من لفت النظر إلى أن نقوش الألواح قد اقتصرت على شكلين اثنين هما أبو الهول والأسد؛ زِد على ذلك أن العضادات البازلتية في قواعد الجدران زوقت هي الأخرى بهذين الشكلين فما هو الغرض من ذلك؟ نحن نعلم أن الأسد من حيوانات الربة عشتار فهو رمزها وشارتها في الجناح الشرقي للهلال الخصيب مثلما كان أبو الهول رمزها وشارتها في الجناح الغربي منه، ويعتبر رب الجبل من معاونيها ومرافقيها؛ ومن المؤكد أن اختيار هذه الصور كان للإشارة إلى أن هذا المعبد للربة عشتار ومما

يعزز وجهة النظر هذه أننا عثرنا على لوحة بازلتية نقشت عليها صورة عشتار المحاربة وتعتبر هذه اللوحة من نفائس المنحوتات في عين دارة ورغم أن الربة مدججة بالسلاح لكنها تبدو بملابسها المتنوعة والمزركشة كأنها عروس.

* موقع معبد تل حلف (جوزن) :

يقع موقع تل حلف شمال سوريا على الحدود السورية التركية على منابع الخابور قرب رأس العين، ويعود الموقع إلى عصر الحديد (القرن التاسع والعاشر قبل الميلاد).

♦ معبد القصر في تل حلف (جوزن) :

لقد شيد المعبد القصر في جوزن (تل حلف) في القرن العاشر قبل الميلاد على مصطبة ترتفع من (١-١.٥٠م) فوق سطح الأرض وقد بنيت باللبن الذي بلغ حجمه (١٦٠٠٠م^3)، وتمتد المصطبة أمام المدخل وكان فيها درج ومذبح وعمود مرتفع يحط عليه طائر كبير يشبه النسر مصنوع من حجر البازلت، وقد ارتفع قبالته الساكف الخشبي على ثلاث أنصاب أرباب تقف فوق أسد وثور ولبوة، ويبلغ عرض المدخل الذي يتراجع عن البرجين المحيطيين به (١٠م) وارتفاعه (٦م) ويشكل تمثالان لأبي الهول دعامتيه كما تزينه لوحات حجرية كلسية وبازلتية منقوش عليها أشكال متعددة مثل منظر صيد الأيل، الشمس المجنحة ...إلخ . وبعد عبور هذا المدخل العميق المزين بزخارف بديعة نصل إلى القاعة الأمامية (٣٦.٧٥×٥م) ثم إلى القاعة الرئيسية (٣٦.٧٥×٨.٠٥م) التي كان فيها موقد مصنوع من البرونز يحرك على عجلات ويبلغ عرض مدخل القاعة الرئيسية (٤م) وكان مزيناً باللوحات المنقوشة. وتحيط الحجرات الصغيرة بالقاعتين من ثلاث جوانب ويدعم برجان كبيران أصمان زاويتي الواجهة الشمالية المدعمة بعضادات

بارزة والمزينة بنعلة تألف من (٢٤٠ لوحة) يتراوح ارتفاعها من (٦٠-٨٠سم) صفت بالتناوب: لوحة بازلتية تليها لوحة جيرية ضاربة إلى الحمرة وقد نقشت عليها زخارف متنوعة مثل: (أشكال حيوانية، كائنات مركبة من إنسان، حيوانات تدق على آلات موسيقية ...إلخ).

إعادة تشكيل واجهة معبد تل حلف ـ المتحف الوطني بحلب

هذه الآبدة حافلة بالزخارف والنقوش وأغرب ما فيها تماثيل الأرباب: (ربان يقفان فوق ثور وأسد وربة تقف فوق لبوة) ويحملون ساكف (سقف) المدخل الخشبي، لقد تجاوز البناؤون المألوف ونصبوا التماثيل في المدخل ليس فقط ليزينوه بل ليضفوا على البناء صفة القدسية. أما وجود المنقل البرونزي في القاعة الرئيسية فدليل على السكن فيه .

النحت في جوزن:

يحتل الفن في مدينة جوزن (تل حلف) مكان الصدارة بين مراكز الفن الآرامي؛ ففي هذا المركز نشأ وترعرع الفن الآرامي قبل نشوئه في بلاد الشام؛ وفيه كشف التنقيبات الأثرية عن مجموعة كبيرة من المنحوتات كان معظمها في مكانه

الأصلي مما ساعد في التعرف على وظيفتها ودراستها وفق مكان وجودها. وبما أن اللوحات والمنحوتات التي كانت تزين القصر الغربي هي الأكثر والأقدم والأهم فسوف نبدأ بها.

لقد درج الآراميون على عادة تزيين قواعد جدران قصورهم من الخارج باللوحات المنقوشة؛ فلما كانت الجدران من اللبن وتتعرض أجزائها السفلى إلى التأثير بسبب العوامل الطبيعية والإنسانية لذا وجبت حمايتها بطرق متعددة اقتصرت في البدء (أي قبل العصر الآرامي بمئات السنين) على رفع الأساس الحجري فوق سطح الأرض لتتشكل قاعدة حجرية تفصل بين الجدار اللبني والأساس. ومع مرور الزمن وتطلع الإنسان إلى تحسين وتجميل هذه القاعدة الحجرية طرأت عليها تحسينات وتعديلات كثيرة كان آخرها سترها أو كسوتها بنعلة حجرية منحوتة ومزوقة بالزخارف ذات الأشكال المتنوعة سماها الباحثون اورتوستات (Orthostat) نسبة إلى المصطلح المعماري اليوناني (Orthostat) الذي يعني المستقيم أو الشاقولي أو (dado) التي تعني بالانجليزية الجزء السفلي من الجدار أو كسوته.

كان أول من استعمل النعلة هم سكان "إبلا" وسكان "آلالاخ" الذين كسوا الأجزاء السفلى من بوابات مدينتهم باللوحات الحجرية الجميلة المنحوتة وغير المنقوشة وذلك خلال القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وسواءاً أكانت هاتين المدينتين من الكنعانيين هم أول من ابتدع هذه التقنية المميزة أم لا فإنها أول ماظهرت في بلاد الشام وبقيت سائدة في القرنين (١٥/١٤) ق.م في آلالاخ (تل العطشانة) بالذات؛ حيث كانت نعلة القاعة الأمامية لقصر (نقم عفا) هي سلسلة من اللوحات الحجرية البازلتية المنحوتة التي يبلغ ارتفاعها ٧٢سم ولم تكن منقوشة

وإذا كانت هذه اللوحات غير منقوشة فإنه عثر في "إبلا" و"آلالاخ" و"حاصور" على لوحات منقوشة، وهي وإن كانت ثلاثاً فقط فإنها تدل على قدرة السكان على نقش اللوحات ولكنهم لم يفعلوا !؛ كالآراميين الذين أتوا بعدهم .

إن نقوش لوحات تل حلف متعددة وقد نقش شكل واحد على لوحة واحدة واصطفت اللوحات بجانب بعضها دونما ترابط بين نقوشها إذ نجد مثلاً : (صورة محارب على لوحة تليها لوحة ثانية عليها صورة جمال ثم لوحة ثالثة عليها صورة أرنب وأيل) من غير أن تؤلف موضوعاً ومشهداً واحداً هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن المشاهد لم تتكرر إلا فيما نذر وكان عددها بعدد اللوحات أي حوالي ٢٤٠ مشهداً استوحيت من فنون الممالك الأقدم باستثناء عدة مشاهد مثل (الفارس على ظهر الجمل، وصياد النعامة، والإنسان المجنح برأس أسد، والأسد المجنح برأسي أسد وإنسان ....الخ). ولعل مرد هذا إلى أن الغرض منها كان لتزويق الجدران فقط ولم يكن لتصوير حدث معين بذاته صنعه الملك كما في الفن الآشوري. ويتضح هذا الاتجاه الفني في جوزن من التماثيل واللوحات الأخرى التي كانت تزين مدخل القصر والتي كانت أكبر من اللوحات التي ذكرت. وأكثر المنحوتات تأثيراً في نفس الزائر: التماثيل الثلاثة التي كانت تحمل الساكف الخشبي للمدخل إذ يبلغ ارتفاعها ٢.٧٥م ويقف كل واحد منها على حيوان يبلغ ارتفاعه ١.٥٥م. والتماثيل الثلاثة لرجلين وامرأة بحيث يقف كل من الرجلين على أسد وثور بينما تقف المرأة على لبوة في الجهة اليسرى وبهذا يصبح الثور في الوسط وترتدي المرأة ثوباً طويلاً وتبرز الأرداف ويبرز الثديان من تحته فيبدو وكأنه رقيق وتضع على رأسها قبعة مزركشة تشبه لباس رأس دمية عاجية لإمرأة من مجدو تتزين بالحلي كالأطواق والأساور والخلاخيل أما الرجلان فيرتديان ثوباً يشبه الدرع

الذي شاع استعماله في بلاد الشام خلال هذا العصر ويلتفان بشال كعادة أهل ماري في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد وكعادة الآراميين في هذا العصر، ليس في لباس هؤلاء الأشخاص ولا في الكتابة المنقوشة على ثوب المرأة وكتف الرجل مايدل عليهم فمن الباحثين من يقول بأنهم آلهة ومنهم من يقول بأنهم من أفراد أسرة كبارة باني القصر ومهما يكن الأمر تبقى هذه القطع رائعة ولا مثيل لها في فن الهلال الخصيب حيث لم يكن استخدام التماثيل الإلهية أو البشرية في مثل هذه الحالة مألوفاً لذا نحن نرجح أن تكون مجرد عناصر زخرفية تزيينية كاللوحات وتماثيل أبي الهول التي تزين المدخل، ومما يعزز وجهة النظر هذه أن النحات قد اهتم قبل كل شيئ في ملائمة وضعية الأجسام مع عملها فالناظر إليها يرى بوضوح كيف أنه قد أتقن تقليد الأجسام التي تنوء بالحمل بينما لم يهتم كثيراً في تقليد أعضاء الجسم؛ ففي حين نرى أن الآذان والركب تشبيهية نجد أن الأقدام ونعالها واقعية والرؤوس بلا أعناق تقريباً، وحسب الكتابة المسطرة على بعض التماثيل فإن تاريخ القصر يعود إلى عصر "كبارة ابن خادياني" وهو مؤسس قصر حلف أي يعود تاريخ القصر إلى القرن العاشر ومطلع الألف التاسع قبل الميلاد؛ وعلى هذا الأساس تكون المنحوتات من هذا العصر، ويستثنى من ذلك اللوحات الصغيرة التي كانت تزيين الواجهة الشمالية، والتي هي أقدم من عصر كبارة الذي أعاد استخدامها في قصره فهي من القرن العاشر قبل الميلاد. هذا من حيث الموضوع أما من حيث الأسلوب فنرى أن الفنان قد حافظ على الشكل التكعيبي للكتلة الحجرية حينما جعل جزء الثوب الذي يغطي الساقين من تحت الركبتين وكأنه سطح للمقعد الذي يجلس عليه الممثَّل، وحينما جعل الجذع يشكل مع الساقين زاوية قائمة وضمن هذا الإطار الهندسي للشكل العام اهتم الفنان قليلاً بإبراز بعض أعضاء الجسم من تحت الثوب وبوضعية الذراعين على الجسم التي

تعبر عن التأمل، وفي بروز الوجنتين أو الخدين والجعدة تحتهما التي تعبر عن ابتسامة رقية أو شرود في التأمل. كما أن معالجة الفنان للشعر ليست واحدة ففي حين تتدلى خصل شعر الرجل والمرأة فوق الظهر؛ تنسدل ضفيرتان على صدر المرأة بحيث تغطيان جزءاً من الوجه والجيد الطويل وتساعدان في إظهار الابتسامة على الوجه .

التماثيل الآرامية والنحت التربيعي

في الحقيقة ليست هذه التماثيل وحدها في "جوزن" فقد عثر على تمثالين أحدهما لامرأة جالسة والآخر لرجل جالس في مدفن قرب البوابة الجنوبية للحي الملكي، وعلى تمثال لرجل وامرأة جالسين بجانب بعضهما في حجرة عبادة قريبة من المدفن، وإن وجودهم في مثل هذا المكان له مغزى ديني؛ فقد كان من عادة الآراميين وضع صور في المدفن للأشخاص الكبار في القوم تمثلهم وهم جالسين إلى المائدة مثلاً وتفسير ذلك أن التمثال ينوب عن الجسد الفاني، وفيه وبواسطته يبقى الميت حياً، ولكن لماذا يوضع في القبر؟ نحن نظن أن مرد ذلك إلى أن القبر يزار في مناسبات معينة فيلتقي الخلف بالسلف عن طريق الصورة.

نماذج من النحت الآرامي
تل حلف

في الختام نرجح أن تكون هذه التماثيل من إنتاج القرن التاسع قبل الميلاد أو على الأرجح من إنتاج النصف الأول منه، وكما قلنا قبل قليل فإن غرض فن النحت في جوزن خاصة وعند الآراميين عامة التزيين؛ وفي سبيل تحقيق هذا الغرض قلد النحات من سبقه من الفنانين ورسم أشكال غريبة عجيبة مركبة من أنواع من الحيوانات المفترسة والطيور الجارحة (أسد مجنح برأس صقر) أو من الإنسان والحيوان (إنسان + سمكة)؛ ولكنه ابتدع أشكال جديدة مثل المنحوتتين اللتين كانتا تزينان بوابة العقارب التي تسهل الدخول إلى الحي الملكي؛ فالشكل هنا يتألف من رأس إنسان ملتحي يلبس تاجاً ذا قرون للدلالة على ربوبيته وركب الرأس فوق مقدم طائر جسمه جسم عقرب يعلوه جناحان، ولم تكن المنحوتتان متشابهتين تماماً بمعنى أن الواحدة نسخة عن الأخرى بل توجد اختلافات بسيطة

تميز الواحدة عن الأخرى وتدل على أنها من صنع فنانين؛ كما تنقص خصل الشعر فوق الجبهة والوجنتين والشفة السفلى في الكائن الغربي الذي تعلو فمه ابتسامة وتتدلى لحيته فوق صدره ككتلة واحدة، ويتفق الباحثون على أن بوابة العقارب و منحوتاتها من القرن التاسع قبل الميلاد.

النحت المركب ـ من النماذج الأرامية ـ تل حلف

◄ آلهة «تل حلف» الآرامية في سوريا تنهض من الرماد ببرلين :

آثار تل حلف تعود بالذات إلى قصر الملك الآرامي كابارا بن قاديانو (كبارة ابن خادياني). ومن أهم المكتشفات العائدة لهذا العصر بالإضافة إلى المساكن والبيوت؛ القصر الذي كشف فيه عن نقوش ومنحوتات تعود إلى الملك الآرامي كابارا ، وقد شيد هذا القصر وفق المخطط المعروف بـ"بيت هيلاني" أي البيت العالي؛ له مدخل ضخم يليه درج كبير من الحجر المنحوت، وتم تزيين المدخل بمنحوتات حجرية ضخمة وقد تم تشكيل نموذج صناعي شبيه لمدخل هذا القصر (نسخة عن المنحوتات) وتم تزيين مدخل متحف حلب الحالي به.

علماء الآثار الألمان نجحوا في إعادة لصق ٢٧ ألف «شظية» لتماثيل

مهشمة، جمعت شظايا آثار تل حلف عام ١٩٤٣ في صناديق وتم خزنها في أقبية متحف البيرغامون، (ويعود الفضل في نقل الآثار السورية إلى برلين إلى الدبلوماسي الألماني "ماكس فون اوبنهايم" الذي بذل جهده وماله من أجل الحفريات في تل حلف). قضى فون اوبنهايم، بعد ذلك ٤ سنوات في حفر القصر الذي يعود إلى سلالة الملك الآرامي كابارا بن قاديانو . كان ماكس فون اوبنهايم قد تعلق كثيراً بتمثال لامرأة ذات جدائل بوضعية الجلوس وجد في إحدى الغرف واعتبره أهم التماثيل التي إكتشفها حتى أنه سماها "فينوس" على اسم الآلهة الإغريقية؛ حيث وجد تحت عمق متر من التمثال جرة كبيرة فيها بقايا جثة محروقة مع بعض الحلي من الذهب والفضة والعاج. ويتميز هذا التمثال بجمالية نادرة نسبة إلى تماثيل عصره وبتعابير مميزة. وُجِد أيضاً تمثال آخر يعتقد بأنه لملكة آرامية تنظر إلى الشرق في غرفة مجاورة. نرى وضعية السيدتين أنهما جالستين وتضعان اليد اليسرى على الفخذ بينما تلتقط بيدها اليمنى صحناً أو وعاءاً أو كأساً.

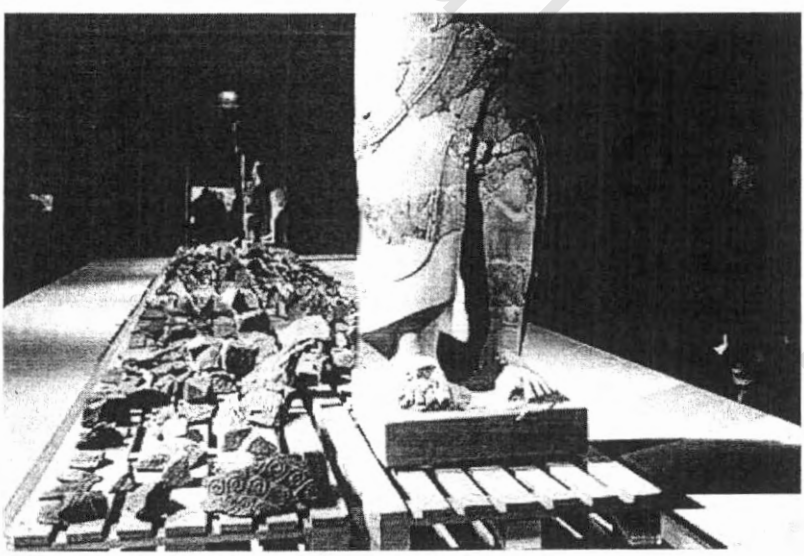

© Max Freiherr von Oppenheim-Stiftung

Ras-El-Ain - Ruine Assyrienne de Tell-Halaf

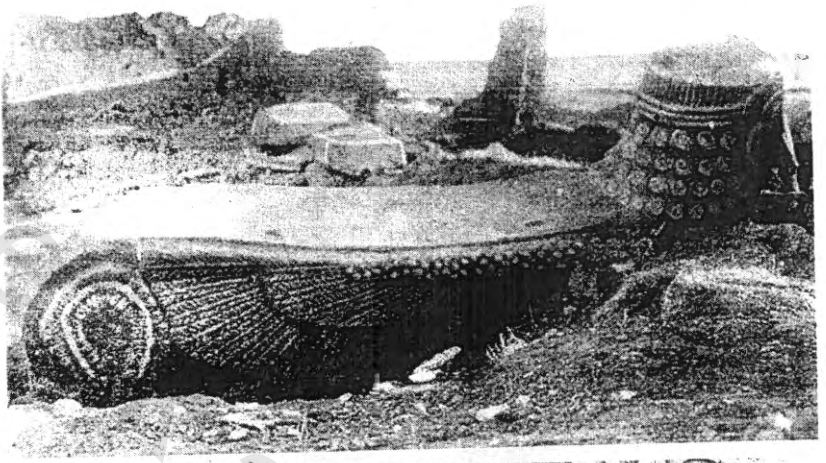

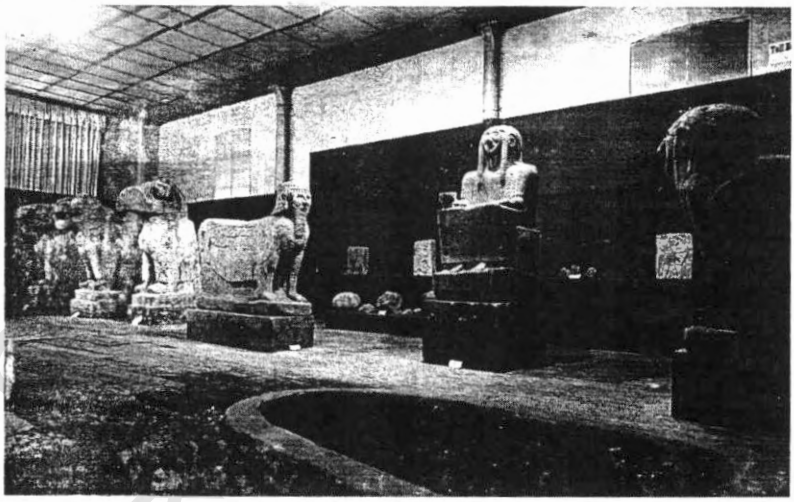

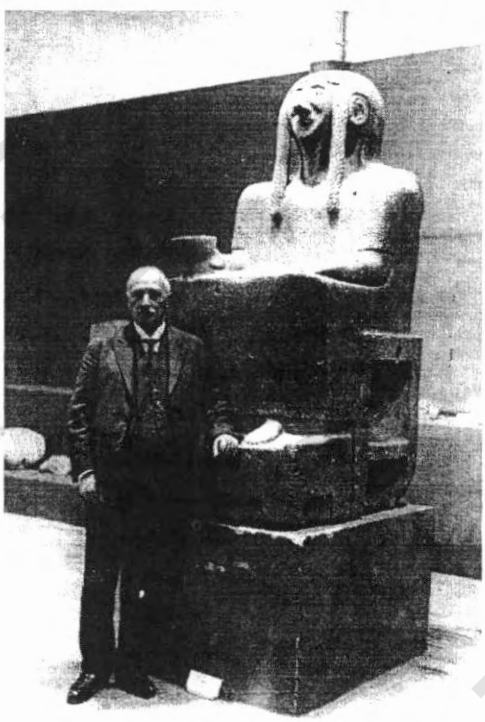

المنحوتة التي أحبها ماكس فون اوبنهايم والتي وجدت في غرفة دفن

منحوتة الرجل العقرب المجنح

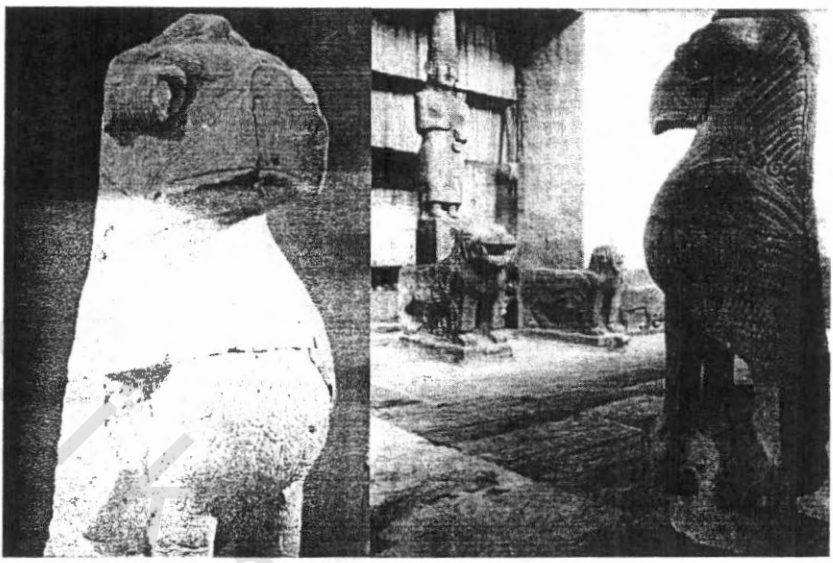

منحوتة لطائر جارح

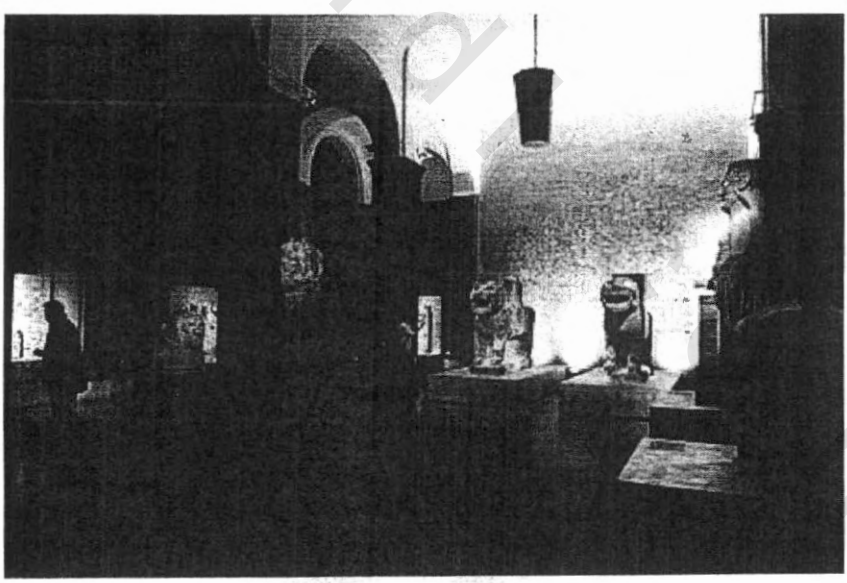

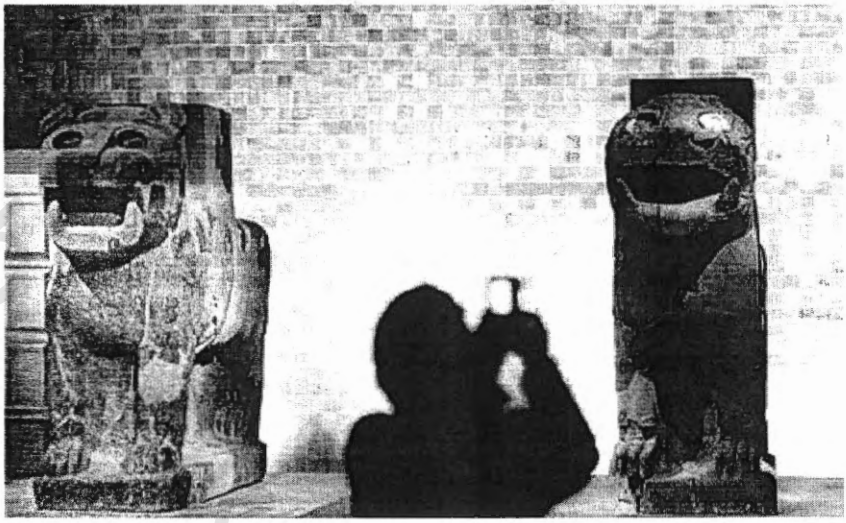

أسود بازلتية من مدخل قصر كابارا ٩٠٠ سنة قبل الميلاد

منحوتة لزوجين وجدت في إحدى عرف قصر كابارا في تل حلف

نقش بارز لكائنات تحمل قرص الشمس أو النسر الذي اتخذ شعاراً للسريان، تل حلف

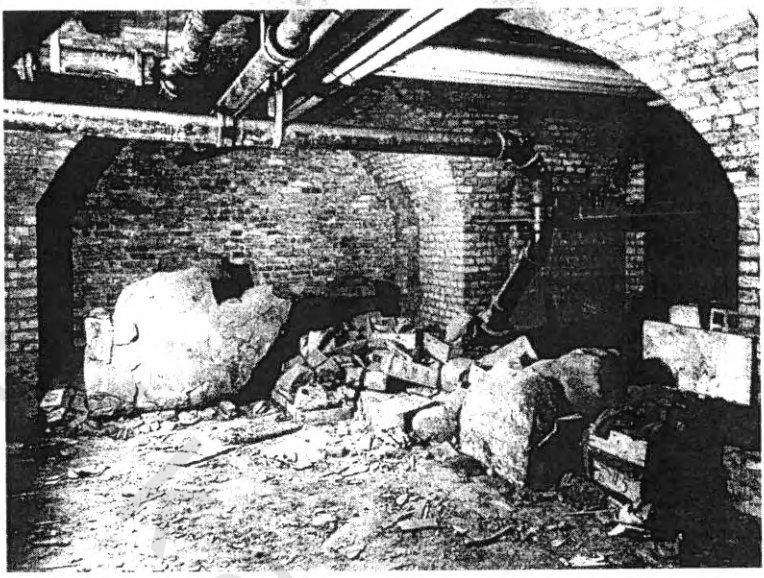

هذه القطع الأثرية تم العثور عليها في تل حلف،

أحد مقرات الأمراء الآراميين في الألف الأولى قبل الميلاد.

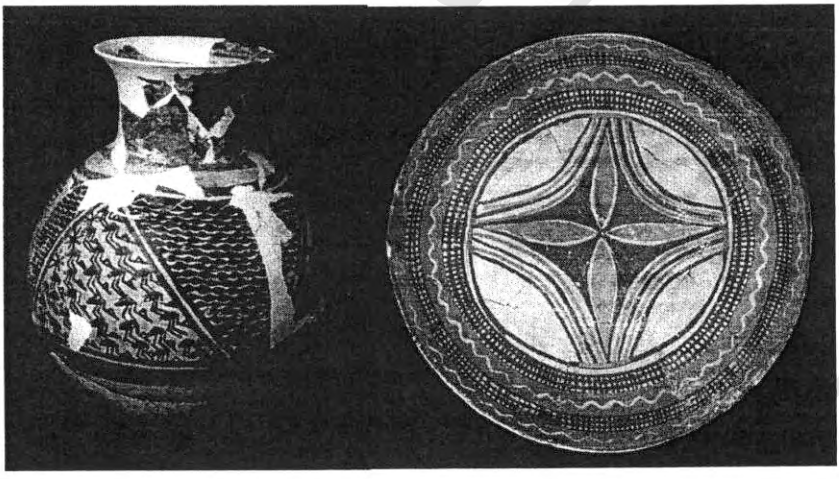

فخار مزخرف من حلف

* مظاهر الحياة :

لقد احتكر الآراميون تجارة سوريا الداخلية، وكانت قوافلهم تجوب الشرق الأدنى بأكمله؛ تحمل الأرجوان من فينيقيا والأبنوس والعاج من أفريقيا واللؤلؤ من الخليج، كما تاجروا بالألبسة والنحاس واستخدموا النقود في تجارتهم، عثر في أطلال آشور ونينوى على أوزان نحاسية آرامية، كما أجادوا صناعة التحف العاجية وصياغة الحلي الذهبية والفضية والنحاسية. وصناعة الأسلحة والمركبات الحربية، وقد عثر في تل حلف على إناء برونزي منقوش. وكانت مملكة «بيت زماني» تعتمد في اقتصادها على استخراج النحاس المحلي من منطقة المناجم الواقعة على بعد ٦٠ كم إلى الشمال الغربي من ديار بكر، وورد ذكر القصدير في حولياتهم مع المعادن الأخرى، وخاصة الذهب والفضة.

اعتمد الآراميون في غذائهم على الحبوب والخضروات والفاكهة، فقد ذكرت النصوص أن أهم أنواع الحبوب كانت الشعير ثم القمح، حيث كان الشعير وسيلة الدفع في الحضارة الرافدية القديمة، قبل أنّ تصبح الفضة والذهب هي الوسيلة في وقت لاحق. وتذكر النصوص أن زراعة الكرمة والأشجار المثمرة ترافقت مع زراعة الحبوب. أمّا تلقيح النخيل فكان يتم يدوياً، وقد تمّ تصوير ذلك في الأشكال الفنية، إذ وجدت في «جوزن» منحوتة من القرن التاسع قبل الميلاد تمثل رجلاً يتسلق شجرة نخيل بواسطة السلم، من أجل القيام بتخصيب الشجرة الأنثى ثم يقوم بوضع الزهر الذكري بوساطة كوز مخروطي.

لقد كان الآراميون يتركون نصف الأرض الزراعية للراحة دون زراعة، من أجل المحافظة على خصوبة التربة وعدم إفقارها. وقد كان نظام الأراضي بوساطة

الأقنية موجوداً في أغلب الأحواض المائية، كما أسهم نظام السقاية في تعديل الأساليب التقليدية التي كانت متبعة في بلاد آشور وشمالي الرافدين.

كشفت الحوليات اقتصاداً مختلطاً من تربية المواشي والزراعة عن طريق الذكر المتكرّر لضرائب تتألف من الغنم والثيران والأغنام، وذكرت الحبوب والتين والجياد والبغال. حصل «هدد نيراري الثاني» على الأحصنة وتفحّص بنفسه الأملاك والحجارة الكريمة، والعربات، والنساء والأولاد، وكل الممتلكات الثمينة. ومن «جوزن» جاءت لوحة منحوتة فيها تمثيل لجمل يمتطيه رجل يجلس على سرج يشبه الصندوق. وأحدهم جلب من «بيت عديني» أنثى قرد كبيرة وأخرى صغيرة، وتلقى عدداً من البط ووجدت دمية طينية تمثل الفيل وراكبه، واصطادوا الفيلة من أرض حرّان وأرض الخابور.

اهتمّ الملوك الآراميون بتحصينات المدن وبناء القصور الضخمة والواجهات الكبيرة، وقد درجوا على عادة تزيينها من الخارج باللوحات المنقوشة، وأكثر المنحوتات تأثيراً؛ التماثيل الثلاثة التي تحمل السقف الخشبي للمدخل، إذ يقف كل منها على أسد وثور، بينما تقف المرأة على لبوة.

والمعبد بناء بسيط مستطيل الشكل، له مدخل محرابي، يليه قاعة أمامية، ثمّ المصلّى، وقد يكون فيه حوض الذبائح، وعادة تبنى المعابد في العمارة الدينية لدى الآراميين فوق مصطبة مرتفعة تكسى واجهتها بالأحجار البازلتية المنحوتة على شكل أسود وأبي الهول الآرامي أو تمثال الربة عشتار. وقام الآراميون بنحت المسلات ذات الموضوعات الدينية والحربية، يأتي على رأس الآلهة التي عبدت عند الآراميين الإله حدد، إله الزوابع والرعد والمطر، والإله سين، إله القمر، والإله شمس، إله الشمس. وعبد فريق من الآراميين الإله ركب.

كانوا يعتقدون أنّ الأرواح الشريرة تدخل إلى جسم الميت من فمه، لذلك اعتادوا على وضع صفيحة معدنية على فمه لتمنع دخول هذه الأرواح إلى جسده. كما اعتقدوا بتأثير الكواكب على الحظوظ لبشرية.

* الصناعة والتجارة في العصر الآرامي :

* الصناعة :

برع الآراميون كالكنعانيين في الصناعات الصغيرة المختلفة مثل صناعة الملابس الصوفية والكتانية والقطنية الجميلة، والأثاث الخشبي والجلود، وأدوات الكتابة، وفي صناعة الحليّ من الفضة والذهب والحفر على المعادن والعاج، وقد عثر على نماذج من العاج في أسلان طاش (حداتو في شمالي سوريا)، هي موجودة اليوم في متحف اللوفر. واشتهرت بعض المدن السورية القديمة منذ عصر أوغاريت وإبلا وحماة وكركميش بالحفر على عاج الفيل الذي كانت قطعانه تعيش في سوريا الشمالية في غاب العاصي حتى أواخر الألف الأول قبل الميلاد، وقد صنع منه الحرفيون المهرة الأختام التي نقش عليها صور من الحياة اليومية والدينية والتماثيل والعلب والأمشاط واللوحات التزيينية واستخدموه لتطعيم الخشب كالموزاييك وغيرها الكثير من الصناعات التي برع فيها الإنسان في فترة الحضارة الآرامية في سوريا والمشرق القديم.

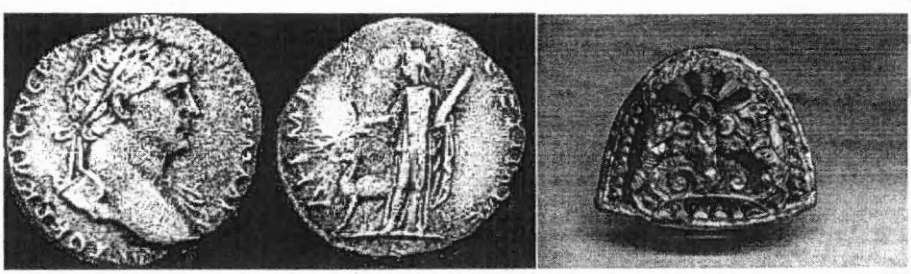

الأختام الآرامية

* التجارة :

للتجارة في سوريا القديمة ماض عريق يرقى إلى إبلا وأوغاريت وماري وغيرهم من الممالك السورية القديمة. ولكن التجارة بلغت ذروة مجدها في العصر الآرامي. وكان التجار الآراميون يبعثون قوافلهم إلى جميع بلاد المشرق القديم لتصل إلى منابع دجلة والفرات شمالًا وإلى مصر والحجاز جنوباً. واكتشف في العاصمة الآشورية نينوى بعض الأوزان البرونزية التي خلّفوها. واحتكر الآراميون التجارة الداخلية في البلاد، كما سيطر الكنعانيون على التجارة البحرية في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر. ومن دمشق حاضرة البلاد السورية كانت تنطلق قوافل كبيرة باتجاهات مختلفة. وعمل ملوك بلاد آرام ولاسيما حزائيل على فتح طرق التجارة مع مدن فلسطين ومصر وشبه الجزيرة العربية. واحتل التجار الآراميون مكانة مهمة في البنية الاقتصادية للإمبراطورية الفارسية الأخمينية فيما بين القرنين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد؛ فحملوا الأرجوان من مدن الساحل السوري الفينيقي وتاجروا بالأقمشة المطرزة والكتان والحجر الكريم واليشب، وجلبوا النحاس من قبرص، وخشب الأبنوس من أفريقيا واللؤلؤ من الخليج العربي، ونقلوا العطور والعقاقير والزيوت والتمور والثمار المجففة، واتصلوا في رحلاتهم ببلاد بعيدة استوردوا منها التوابل والبخور. وكان يرافق التجار في رحلاتهم المسافرون والمغامرون وقد تميز التجار الآراميون بشكل كبير عن غيرهم. وهكذا تحركت في عالم الشرق العربي أسر وتنقلت من سوريا جاليات حاملة معها حضارتها ومعتقداتها وثقافاتها وعاداتها ولغاتها وهو ما أدى إلى تفاعل بين أقطار المشرق العربي القديم وثقافاته وانتشار الثقافة والفن والتجارة الآرامية في مناطق قريبة وبعيدة، وهذا يوضح مدى ما كان علية الآراميون من حضارة وتقدم استمر مع تعاقب الحضارات.